GHAZI AL-GOSAIBI

unani WRITINGS

غازي عبد الرحمن القصيبي

الأسطورة







تفانين

غازي عبد الرحمن القصيبي

الأسطورة





الأسطـورة / نصـوص

غازي عبد الرحمن القصيبي / مؤلف من المملكة العربية السعودية

الطبعة الثالثة، ٢٠٠٦



المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:

بيروت، الصنايع، بناية عيد بن سالم،

ص.ب: ٥٤٦٠ - ١١، العنوان البرقي: موكيّالي،

هاتفاكس: ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨

التوزيع في الأردن:

دار الفارس للنشر والتوزيع

عمّان، ص.ب: ٩١٥٧، هاتف: ٥٦٠٥٤٣٢، هاتفاكس: ٥٦٨٥٥٠١

E-mail: info@airpbooks.com

تصميم الغلاف:

زياد حمدان zladhdn@hotmail.com

الصفّ الضوئي:

المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر

التنفيذ الطباعي:

مصطفى قانصو للطباعة والتجارة / بيروت، لبنان

ISBN 9953-36-941-0

الإهداء

إلى

فهد فواز فهد عبدالرحمن القصيبي

الذى أراد

أن يربّي فراشة

قصة

فراشة أخرى

تعريف

الأسطورة

هي ذهابك عن الدنيا

وتركك في الدنيا دوّياً.. كأنّما

تداولَ سْمعَ المرءِ أنملُه العَشْرُ [1]

---

١. البيت للمتنبي

كنت في أحشاء المكتبة. دودة كتب. في جامعة جنوب كاليفورنيا. أحضّر لورقة من الأوراق الفصلية التي لا تنتهي. عندما جاء صديق. دودة كتب أخرى. وهو يبتسم. لا أدري لماذا كان يبتسم. المفاجأة تثير ردود فعل غريبة. قال إن الرئيس كينيدي في المستشفى. بعد محاولة اغتيال. " أنت تمزح. أليس كذلك ؟". تتسّع الابتسامة. لا أدري لماذا تتسّع. " لا أمزح. سمعت الخبر من الراديو". تركني صديقي. وحمل

ابتسامته ومجموعة من الكتب. وذهب إلى طاولة صغيرة. وبدأ يذاكر. "رمتني بدائها وانسلّتْ"! لم يكن بوسعي أن أواصل البحث في التاريخ القديم وحولي تاريخ معاصر يُصنع. خرجتُ من المكتبة إلى الحديقة التي تمتّد ثم تنحني لتصنع دائرة مُغطّاة بالأعشاب. كنت في الثالثة والعشرين. قليل الخبرة بالحياة والموت ومحاولات الاغتيال. وجدتُ الطلبة والطالبات في حلقات. ووسط كل حلقة راديو ترانزستور. قمّة التقنية وقتها. وكان هناك مكبّر للصوت. أسمعه ولا أراه. ينقل من راديو. أسمعه ولا أراه. أين وضِع المكبِّر ومتى وُضِعْ؟ ومن وضعه؟ لا أدري. وقفت مع الواقفين والواقفات. لم يكن أحد يتحدّث مع أحد. كان الجميع يصغون إلى المكبّر. صمت عجيب. صمت القوم وكأن على رؤوسهم الطير. أو صوت المكبّر. الذى ينقل كلام المذيع. وهو ينتقل من تقرير إلى تقرير. مئات من الطلبة والطالبات. صوت المذيع، عَبْر المكبِّر، يتهدّج. جاءنا الآن خبر غير مؤكدّ. نائب الرئيس أصيب بنوبة قلبية. أكرّر أن الخبر غير مؤكدّ.

الرئيس لا يزال في غرفة العمليات. وحالته حرجة جداً. جاكلين لم تصب بأذى. جاكلين في المستشفى بقرب الرئيس. سوف نوافيكم بالأخبار. حال ورودها. حاكم تكساس أصيب. لا نعرف خطورة إصابته. يقول تقرير غير مؤكّد إن بوليس دالس يبحث الآن عن شخص مشتبه فيه. هناك شهود رأوا شخصاً يتسلل من مخزن الكتب بعد انطلاق الرصاصات. أتلفت حولي. وجوه صامته. لا أحد يعلّق. لا أحد يتكلّم. شيء من القلق. كثير من القلق. في جامعة جنوب كاليفورنيا. جامعة الأثرياء. وأولاد الأثرياء. وبنات الأثرياء. الجامعة التي صوتّت لنيكسون. الجامعة ذات التوجّهات الجمهورية الرأسمالية. التي تكره الحزب الديمقراطي الراديكالي. وتكره الرئيس المليونير الراديكالي. شيء من التناقض. مليونير بنزعات اشتراكية. كانت الجامعة تكرهه حتّى أمس. أما اليوم فقصّة أخرى. مختلفة تماماً. شيء من الخوف. التقارير تتوالى. وكل تقرير أسوأ من أخيه. وحالة الرئيس تزداد حرجاً. ثم صمت المكّبر. ثانيتين أو ثلاث ثوان.

صمت تماماً. كأنَّ على رأسه الطير. طير الموت. وجاء صوت المذيع. بنبرة قالت كل شيء. قبل أن يقول شيئاً. سيّداتي وسادتي ! هذه لحظة حزينة. هذا خبر رسمي. فارق رئيس الولايات المتحدة الحياة .مات جون كينيدي. انفجر النحيب في كل مكان. مفاجأة مذهلة. لم أكن أعرف أن بوسع الأمريكيين أن يبكوا على هذا النحو. علناً. بصوت مسموع. الرجال والنساء. تعلّقتْ طالبة لا أعرفها - أكرّر لا أعرفها ! - بعنقي. وأخذت تبكي. وتخلّصتُ منها بصعوبة. ذهبتُ إلى المنزل. قضيت أسبوعاً كاملاً. أشاهد كل شيء. ألف مرّة. الرئيس المبتسم. الزوجة الحسناء. الموكب. الفوضى. الرداء الورديّ المُبقّع بالدماء وبقطع متناثرة من المخّ. المُتّهم، اوزولد، يُقتَل على الملأ. أمام كاميرات التلفزيون. ويقول القاتل إنّه فعل ما فعل إشفاقاً على جاكلين. حتّى لا تتحمّل مشقة العودة إلى دالس. ومشقة المحاكمة. تبرير غريب. لحادثة غريبة. ومشاهد حزينة تتوالى. الحصان الذي سقط فارسه. المدفع. الطفل يرفع يده بالتحية العسكرية. وهو يرى كفن

أبيه. الأرملة الحسناء المتماسكة. ولهيب أزرق بقرب الضريح. لهيب أبدي. يُغذّى من مخازن غاز. تُملأُ بانتظام. شعلة " كاميلوت ". بلاط الملك آرثر الأسطوري. هكذا تكلّمت الأرملة الحسناء. " في لحظة واحدة. لحظة مضيئة واحدة. كانت هناك "كاميلوت" ". وهكذا تكلم الشقيق. ردّد كلمات جولييت. وهي تنعى روميو. "وعندما يموت. خذوه. وقطّعوه نجوماً صغيرة. وسوف يجعل وجه السماء جميلاً. فيعشق الناس المساء. ولا يلقون بالاً للشمس الطالعة ". أسطورة تولد أمام عيني. وأنا في الثالثة والعشرين. بدويّ في لوس انجيلس. قليل الخبرة بالأساطير. ومرّت سنين، أو سنون، طويلة. ومرّت مياه كثيرة. تحت كل الجسور. وأصبح الفتى جدّاً. يشهد مولد أسطورة جديدة. تنافس القديمة. كنت في إجازتي السنوية. في ألمانيا. في بركة السباحة. مع حفيدي فهد. طفل السنوات الأربع. يطفو هو بفضل طوقيْن في ذراعيه. وأطفو أنا بفضل قانون أرشميدس. أو عالم يوناني آخر. يوناني لا يُفْهَم! والساعة تدنو من العاشرة صباحاً. عندما جاءت

زوجتي. وقالت " لك طول البقاء !" قلت "من الذي مات؟". "ديانا". كنت أعرف أنها لم تكن تمزح. عندما يصل عمر الزواج ثلاثين سنة، أو نحوها، يعرف الزوج، من نظرة واحدة، إذا كانت زوجته تجِدُّ أو تهزل. "متى؟ ". "في ساعة مبكّرة هذا الصباح". "كيف ؟" "في حادثة سيارة ". " أين؟". " في باريس. مع دودي الفايد. الذي مات في الحادثة ". عندما يدنو المرء من الستين يصبح الموت حقيقة ماثلة أمام عينيه. طيلة الوقت. خصوصاً إذا كان شاعراً. يخشى رحيل المواسم. وسقوط الأوراق من الأشجار. وصمت البلابل. وانفضاض السمّار. ووحشة الشطآن. وغُصّة العود. وفراق الأحباب. لا يستبعد أن يموت هو في أيّ لحظة. ولا يستغرب عندما يموت أحد. صغيراً كان أو كبيراً. يموت الجميع. المرضى والأصحاء. المشاهير والمجاهيل. الجميلات والقبيحات. بإنذار وبلا إنذار. واليوم ماتت ديانا. التي يسمّيها الجميع الليدي دايْ. دايْ! داي، بالانجليزية، تعني يموت، أو مُتْ، أو موتى. لماذا لم يتنبّه أحد إلى النبوءة المختفية في الإسم ؟ ماتت

فجأة. في ريعان الشباب. والجمال. والشهرة. ولكن الحياة تستمّر. الحياة لا تتوقف لموت أحد. وفهد الذي انزعج لانقطاع اللعب يود العودة إلى اللعب. ماذا يعني موت ديانا لفهد ؟ لا شيء. اللعبة، الآن، هي شغل فهد الشاغل. وماذا يعني موت ديانا لي ؟ هذه مسألة تحتاج إلى تأمل. ولا وقت للتأمل. فهد، الآن، هو شغلي الشاغل. نستأنف اللعب. ماذا كُنّا نلعب ؟ لفهد خيال نشط يبتكر كُلّ دقيقة لعبة جديدة. آه ! كنا نلعب لعبة الباخرة والمسافرين. كانت أمامنا مخدّة مطاطية هي الباخرة. وكان فهد هو الكابتن وكنت أنا المسافرين. " جدّو! أنت " فات ". "أعرف ياحبيبي، أعرف". ولأنيّ " فات " أستطيع أن أكون المسافرين. لا المسافر الأوحد. يسأل الكابتن " إلى أين ؟ ". ويردّ المسافرون "إلى الرياض". "جك!" "جك!" "جك!" وتنطلق الباخرة إلى الرياض. الرياض في طرف البركة. لا يمكن الوصول إلى الرياض الحقيقية بباخرة. أما في ألعاب فهد، كما في بلاد العالم الثالث، فكلّ شيء جائز. نصل إلى الرياض. ويسأل الكابتن "والآن إلى

أين؟". ويـردّ المسـافرون " إلى لنـدن". يفكّـر الكـابتن قليلاً ثم يقول " لا نستطيع الذهاب إلى لندن". "لماذا يا كابتن؟" لأن الباخرة تحتاج إلى وقود. مخـزن الوقـود في طرف البركة الآخر. كيـف تتحـرّك البـاخرة إلى مخزن الوقود وهي فارغة من الوقود؟ في ألعاب فهد يجوز كل شيء. إذا أراد فهد. "جـك!" "جـك!" "جـك!" ونملأ الباخرة بالوقود. "جك !" "جك !" "جك!" ونصل إلى لنـدن. أحـاول أن أفكـرّ في الأمـيرة الـتي مـاتت. ولا أستطيع. أجـد أفكـاري مشـدودة إلى الفراشـة. أىّ فراشة ؟ الفراشة التي جعلت فهد يبكي. أو يكاد. أمنح فهـد، الآن، نصـف اهتمـامي. ويلاحـظ علـى الفـور. ويقنع بنصف الانتباه. يدرك، بمكـر الأطفـال الغريـزي، أنّه لو طالب بالانتباه كلّه فقد يفقده كلّه. "ما لا يدرك كلّه". حكمة يكتشفها الأطفال قبل أن يسمعوا المقولة. أيّ فراشة؟ الفراشة البيضاء. كان فهد في ملعب أطفـال بقرب المنزل. ووجد الفراشة. على الحشائش. كـان في جناحها عطب منعهـا مـن الطـيران. كـان فهـد سـعيداً بالفراشة. لأول مرّة يستطيع أن يمسـك بفراشـة. كـان

فخوراً باللون الأبيض الذى يختلج في كفّه الصغيرة. فراشة بيضاء. جميلة. جريحة. يحملها إلى أبيه وإليّ. يقول إنه يودّ أن يربّي الفراشة. يأخذها معه إلى البيت. ويلعب معها كلّ يوم. أنظر. إلى فوّاز وينظر فوّاز إليّ. من يتكلم الآن؟ هناك واجبات لا بُدّ أن يمارسها الأب. تخرج عن اختصاصات الجدّ. شرح حقائق الحياة المؤلمة. "لا تستطيع أن تأخذ الفراشة إلى البيت يا فهد". "لماذا؟". "لأنها لا تعيش إلا طليقة بين الأزهار". تعبر بوجه فهد سحابة حزن. "ولكني أريد أن آخذها إلى البيت". "لا تستطيع". "لماذا، يا بابا، لماذا ؟". "لأنها ستموت لو أخذتها إلى البيت". الحقيقة أنها كانت ستموت على أيةّ حال. وفي أي مكان. لا تستطيع الطيران. ولا تستطيع المشي. "لماذا لا تضعها هنا على المقعد وتضع بقربها زهرة؟" "لماذا الزهرة؟". يتدخل الجدّ "الفراشة تحب الأزهار". تبرق عينا فهد بفكرة جميلة " إذن سوف آخذها إلى البيت. وأضع بقربها أزهاراً كثيرةً". ينظر الأب إلى الجدّ. ويبتسمان ابتسامة حزينة. يقول الأب " خذها إلى البيت. ولكن يجب أن

تعرف أنها ستموت". " تموت. لماذا تموت؟ سوف أربيّها. سوف أهتم بها. سوف أطعمها كل صباح". ماذا يطعم الطفل الفراشة التي يربيها؟ وماذا تأكل الفراشة في الصباح؟ كورن فليكس؟!. يقول الأب هل تذكر تلك السمكة الصغيرة التي أخذتها، مرة، إلى البيت ؟ هل تذكر كيف ماتت؟". " لماذا ماتت السمكة؟". " لأنك وضعتها في إناء صغير. فيه كمية صغيرة من الماء". " ولكن هذه فراشة يا بابا. هذه ليست سمكة." "حسناً! حسناً! خذها إلى البيت. ولكن تذكّر أنها ستموت". كان هذا بالأمس. أمّا اليوم فنحن في البركة. ننتقل إلى لعبة أخرى. من تأليف فهد وإنتاجه وإخراجه. المعركة البحريّة. رذاذ الماء يتحوّل إلى قذائف مُدمّرة. ويصيب فهد الهدف كل مرّة. والهدف هو أنا. وأعلن الاستسلام. بلا قيد أو شرط. الخضوع الكامل. على الطريقة العربية. أمام الخيارات الاستراتيجية. والقمم الاقتصادية. ومؤتمرات مكافحة الإرهاب. يودّ فهد مواصلة اللعب. وأرفض. " لابد أن نخرج من البركة الآن". "لماذا؟". "لماذا" هي كلمة فهد

المفضلة. يقولها بثلاث لغات. "لأنك بدأت تبرد".
"لماذا؟". "لأننا قضينا في البركة أكثر من ساعتين".
"أخرج بشرط أن أذهب لمشاهدة الكارتون".
"حسناً!". "وتذهب أنت معي". "حسناً!" "وتبقى
معي" "حسناً!" ديكتاتورية الضعيف. أخطر
الديكتاتوريات. لأن القوي لا يستطيع مقاومتها .نجلس
أمام الشاشة الصغيرة. نشاهد أفلام الكارتون. تظهر
على الشاة عبارة "هناك خبر هام إنتقل من هذه القناة
إلى قناة إخبارية". لماذا يريدون من الأطفال أن يتركوا
قناة الكارتون إلى قناة إخبارية؟ أم أن الكثير من
الأجداد يشاهدون قناة الكارتون؟ "القناع" على
الشاشة يتحدى الأشرار. استراحة إعلانية قصيرة. أنتقل
إلى قناة إخبارية. يعلو ضجيج فهد "لحظة، يا حبيبي،
لحظة!" يشدّ انتباهه منظر السيّارة المهشّمة. "جدّو!
ماذا حدث؟". "أكسدنت يا فهد". فهد يقول لأبيه
كل صباح "بابا! لا تسرع! السرعة تسبب أكسدنت".
وهاهي ذي" الأكسدنت" أمام عينيه. "جدّو! ماذا
حدث؟" "أكسدنت. وماتت الأميرة". أي أميرة؟.

فهد يريد العودة إلى مغامرات " القناع". لا يهمّه موضوع الأميرة التي ماتت. كما ماتت الفراشة البيضاء أمس، وأخفيناها. وأخفينا عن فهد خبر موتها. ونسيها. مؤقتاً على أية حال. الحياة تدور كالعادة. وتوم يطارد جيري كالعادة. وكالعادة، يتغلب جيري في النهاية. الطرف الأضعف. في معارك الكارتون ينتصر الطرف الأضعف. أمّا معركة الحياة فقصة أخرى. لا ينتصر فيها أحد. لا الأقوياء ولا الضعفاء. ويموت الجميع. كما ماتت الفراشة البيضاء. الجريحة. وهذه الأميرة فراشة. ملوّنة كالفراشات. جميلة كالفراشات. تحيا كما تحيا الفراشات. وتموت كما تموت الفراشات. بعد حياة قصيرة. مثيرة. مليئة بالسرعة. والطيران. والمطاردة. والورود الحمراء. وأزهار "الليلي" البيضاء. ومن الذي يعرف عذاب الفراشة؟ من الذي يعرف أن كل يوم جديد تعيشه هو هدية جديدة؟ عمرها كله وقت ضائع. يرنّ التلفون. ويتحدث أحد الأصدقاء. يعزّيني في جارتي. التي تسكن الشارع نفسه. ويضيف " كنت تعرفها. تعرفها جيداً.

أليس كذلك؟ " لا. رأيتها مرّتين. أو ثلاث مـرّات. أو أربـع مرات. إذا كنت تريد الدّقة. وتأتي الذكريات. المـرة الأولى. مطار المحرّق في البحرين. نوفمـبر ١٩٨٦. كنـت عميـد السـلك الدبلوماسـي. ومـن مهمّـات العميـد أن ينـوب عــن السلك في مراسم الاستقبال. مهمّة ثقيلة بعض الشيء. مُملّـة بعض الشيء. إلا هـذه المرّة. استقبال ديانـا. أعـني استقبال الأمير تشارلز والأميرة ديانا. يقول لي صديـق "أكتـب بيتـين من الغزل في ديانا ". " لا أسـتطيع. البروتوكول يحـول دون ذلـك". "البروتوكول؟ يجـوز للشـعراء مـالا يجـوز لغـيرهم". "وماذا لو أهدرت الامبراطورية البريطانية دمي. علـى طريقـة خلفاء بني أمية وبني العباس. الذين يجلسـون على الكراسـي. ويحاربون الأعادي والشعراء بالسيف والمـزراق؟ ". " اكتـب الشـعر. وانسـبه إليّ ". " لـن يصـدّق أحــد. أنـت لسـت شاعراً". "اكتبه على مسؤوليتي". حسناً! حسناً !

أطلّت ديانا كضوء الصبــــاحِ

فلم يبقَ قلب هنا ما شَـــــــرَدْ

فديتُ الشفاهَ .. فديتَ العيـونَ

فديتُ الخدود .. فديَتُ الجسدْ

أخاف عليها مرور الهـــــواءِ
وأخشى عليها عوادي الحَســـدْ
ويا قوم! ما قلتُ هذا النسيــبَ
ولكنه صادرٌ عـــــــن (...)

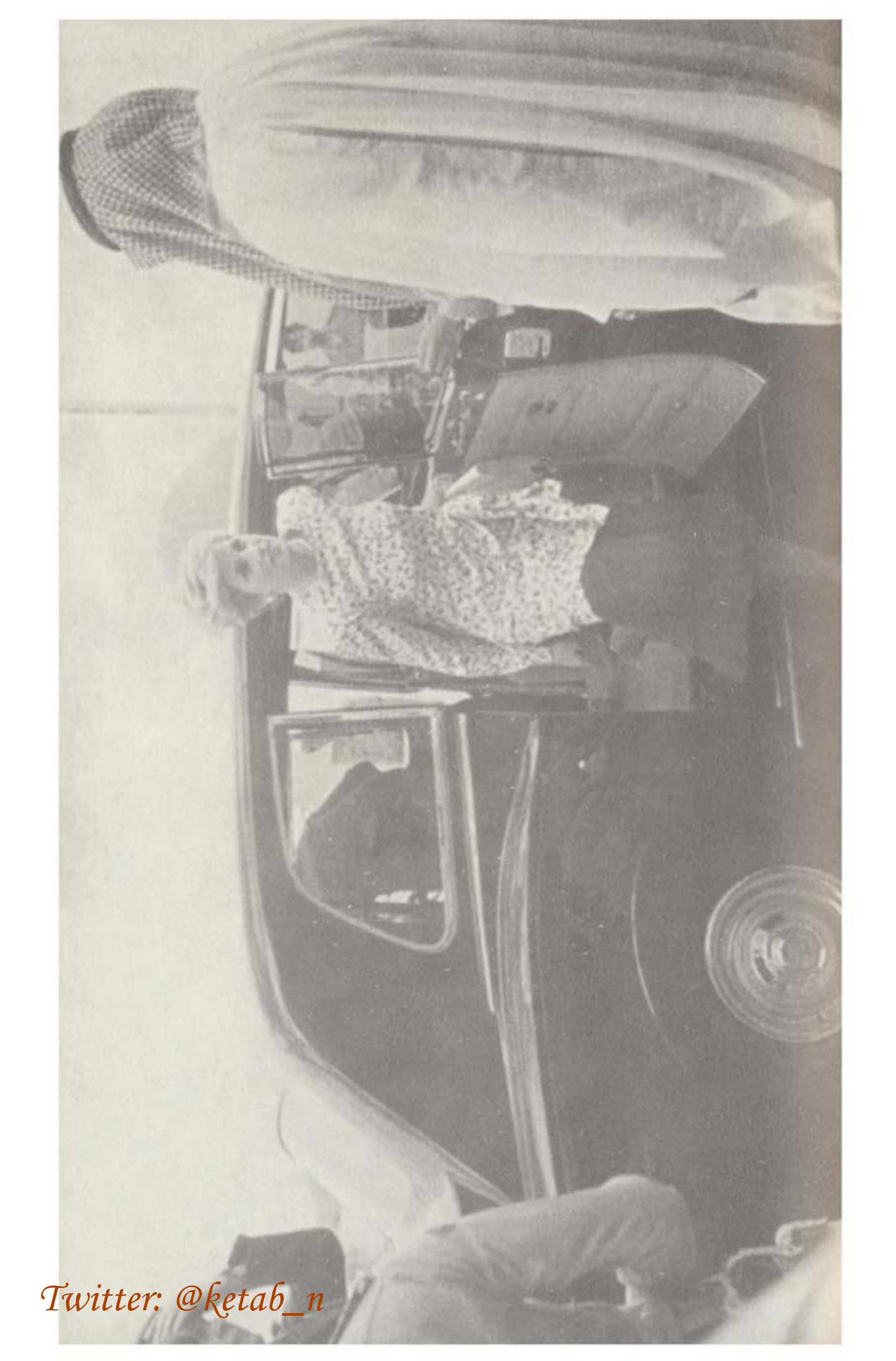
وأطلّـت ديانـا بـالفعل. أعـني أطـلّ تشـارلز ومعـه ديانـا. أطلّـت كضـوء الصبــاح. الابتســامة الشـــهيرة. وأشرقت الشمس في القاعة. قال صديق مُبتلى بالواقعية " مجنون كل مـن يعتقـد أن هـذه الابتسـامة لـه". جملـة صحيحة. جملة غير مفيدة. الواقعيـة، أحيانـاً، تـنرفزني. فليصدّق من يريد أن الابتسامة لــه. ولـه وحـده. حتـى على الابتسامة! كانت تبتسم لنا. وكنا نبتسم لهـا. وإذا كان هذا يزعجك أيّهـا الصديـق الواقعـي فاشـرب مـاء البحر. والبحر قريب من هنا. وتتوالى الذكريات. المــرّة الثانية كانت في الرياض. بعد أيام قليلة من المرة الأولى. كانت تزور جمعية رعاية الأطفال المعوّقين. الـتي كنـت رئيسها. وكنت مضيفها خلال الزيارة. إلا أن الأمـر لم يتـم بسـهولة. كـانت هنـاك مفاوضـات معقـدة بعــض

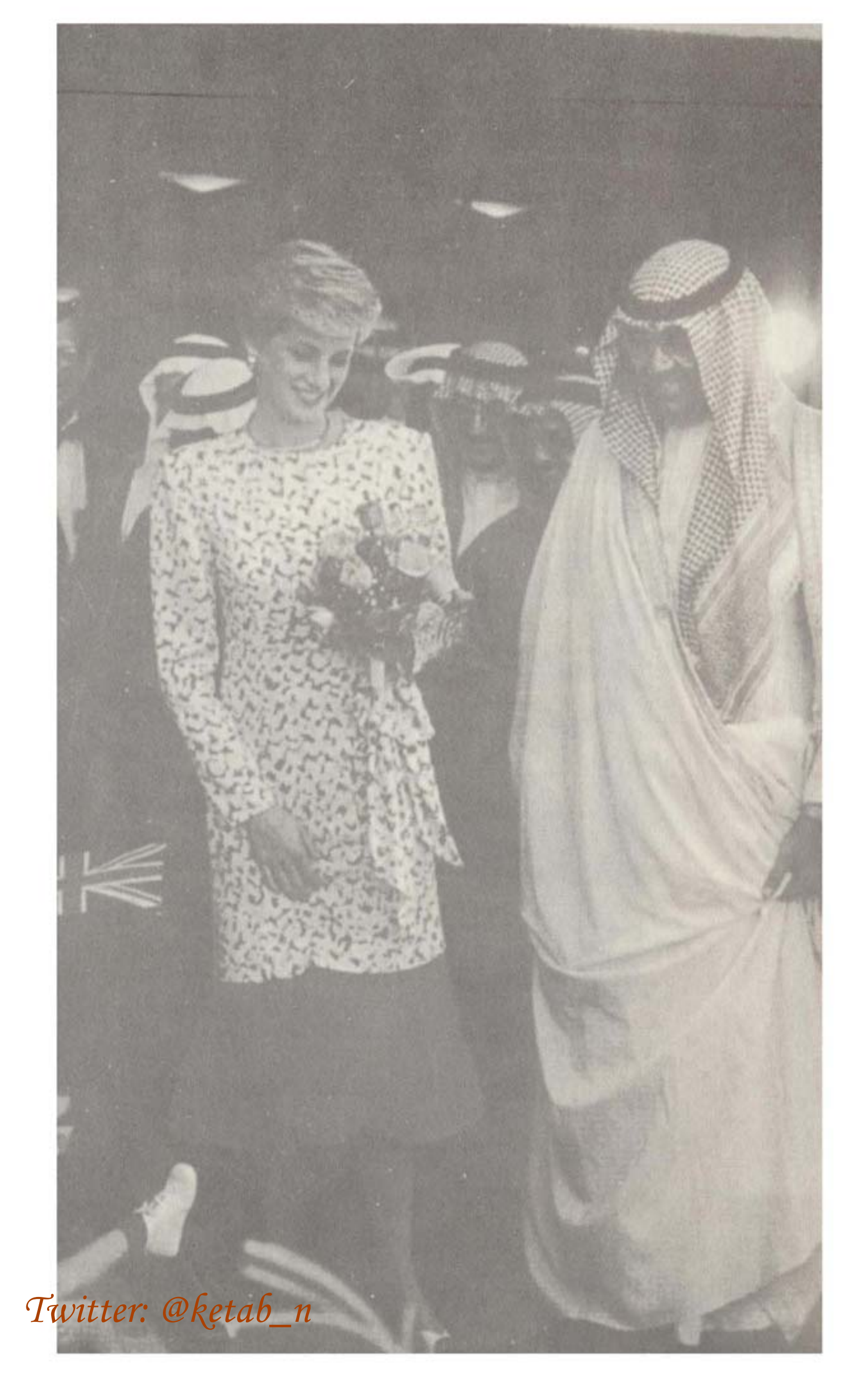
الشيء. قررتُ الحضـور لأسـتقبلها، ثـم غـيّرتُ رأيـي. وقررت عدم الحضور. لماذا؟ لا أدري بالضبط. لم أشـأ أن أكـون واحـداً مـن المعجبـين الذيـن يتبعونهـا حيـث تذهـب. لم أرد أن أصبـح نجمـاً بالتبعيـة. هــل رأيتهــا حقـاً؟! رأيـت ديانـا؟! وهـل كلّمتهـا حقـاً؟! كلّمــت ديانا؟! إلا أن القصة لم تنته باعتذاري. أصرَّ الزمـلاء في الجمعية على وجــودي. وأبـدت السـفارة البريطانيـة في الرياض " رغبة شديدة" في حضوري. ولكني أصـررت علـى الاعتـذار. شـيء مـن الـدلال! ثـم صـدر الأمــر. ووجبـت الطاعـة. الحـق أقـول لكـم : لم آمـر بهـا و لم تسؤني. عندما وصلت مقر الجمعية وجـدت أكـثر مـن معركـة سـاخنة. الصحفيـون يريـدون مقابلـة خاصــة. ومندوبو التلفزيون يريدون مقابلة خاصـة. وجمـع غفـير من الكتاب المحترفين والهواة يريـدون مقـابلات خاصـة. وبرنامج الزيارة مدّته نصف ساعة. بالدقيقة. لا مقابلات! المعـذرة! لا مقـابلات! المصـورون يرفضـون البقــاء في المواقـع المحـددة لهـم. يريـدون أن يتبعـوا الأمـيرة حيــث تـذهب. شيء من الحـزم. على الذين يرفضـون التقيّـد

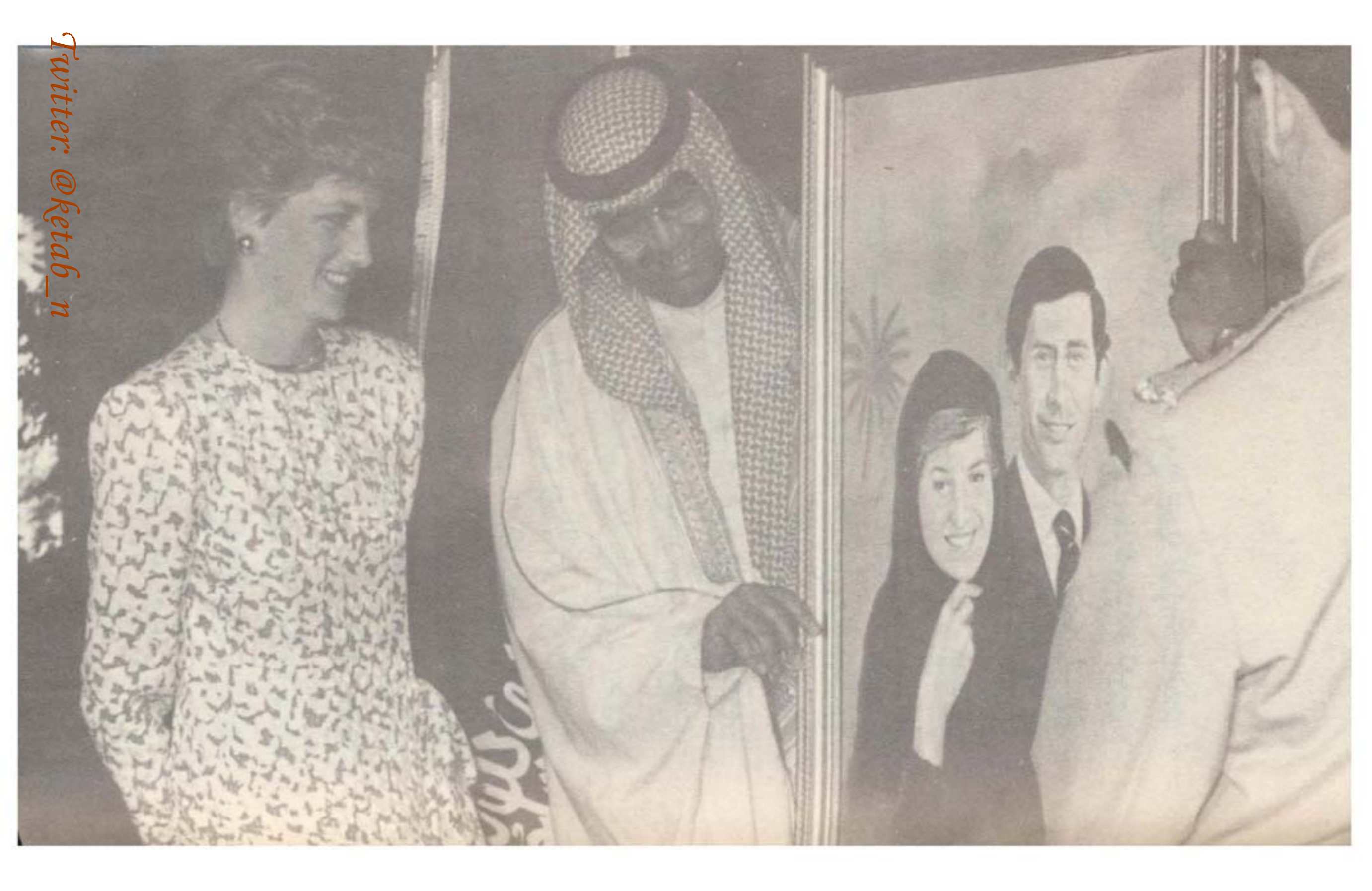
بالتنظيم مغادرة المكان فوراً. أجتمع مع الزملاء. البرنامج الموضوع يحتاج إلى ثلاث ساعات. إذا مرَّ كلّ شيء بسرعة البرق. وألغي البرنامج الموضوع. أحذّر الزملاء. على كل زميل يشرح أن يكتفي بدقيقتين. بالضبط. جاءت الأميرة لترى الأطفال و لم تجيء لتستمع إلى محاضرات. أو لتدلي بتصريحات. أو لتجري مقابلات. في الموعد تماماً وصلت. كانت ترتدي فستاناً أبيض تتخلّله دوائر حمراء. الفراشة الملّونة. قلت "جئتِ في الموعد تماماً ". قالت " هو الذي يتأخر، عادة، لا أنا". هو، بطبيعة الحال، كان الأمير تشارلز. قلت "سمعت أن لديه سبعين بدلة عسكرية. لا بُدّ أن اختيار واحدة يستغرق بعض الوقت". قالت "يستغرق الكثير من الوقت". جاءت طفلة وقدّمت لها باقة من الورود. ظلّت الباقة في يدها. خشيت أن يزعجها حملها طيلة الوقت. قلت " هل تودّين أن يأخذ أحدٍ الباقة؟" قالت. "أنا فتاة قويّة. أستطيع حمل باقة من الورود". ردّ مسكت! بدأ الشرح. وطال. كما توقّعت. وقاطعت الزملاء. " الأميرة لم تجيءْ لرؤية الكهول. جاءت لرؤية

الأطفال". التفتت إليّ. وقالت: "أيُّ كهول؟" قلت "زملائي وأنا". الضحكة الشهيرة. أطوف مع الأميرة بالدار. تقف عند لوحة التبرعات. كتبنا على اللوحة أسماء كلّ من تبرع. حتّى الذي تبرع بريال واحد. أعجبتها الفكرة. قالت إنّها يجب أن تطبّق في كل مبنى يقام بتبرعات. يا حظّك! يا حظّك! رأيتَ ديانا؟! وتحدّثتَ معها؟! حقا؟! وكيف شكلها على الطبيعة؟ مثل الصور، أو أجمل قليلاً. وماذا عن طولها؟ في طولي أو أقصر قليلاً. آخذها إلى الأطفال. تجلس على الأرض. وتسمع. وتقترب. وتبتسم. لا تُقبّل طفلاً أو طفلة. في الغرب لا يقبّل الناس أطفالَ الناس. أمّا في الشرق فيلحسونهم لحسا. ولا ينام الآباء تلك الليلة خوفاً من العين. تقف الأميرة أمام الحروف العربية. " لم أفهم شيئاً. ما هذه الأشكال؟" أوضّح " هذه الأبجدية. الحروف العربية". تقف أمام رسوم ملوّنة وتشير "أعرف ما هذه. هذه سمكة. وأنا حوت". الأميرة ليست من مواليد برج الحوت. هل تقصدُ أن حجمها كبير مقارناً بحجم الطفلة التي كانت تداعبها؟ هل

تقصد أنها تعشق الماء؟ لا أدري. قالت إنها حوت. والسلام. والمعنى في بطن الحوت. أقودها إلى غرفة داخلية لتلتقي بالفتيات السعوديات العاملات في الجمعية. تقول لها فتاة " أنت جميلةً جداً". يحمرّ خدّا الأميرة بعنف. وتردّ. "لا. أنتِ الجميلة" فتاة توشك أن تصبح أماً تقترب منها وتقول" أرجو أن أرزق بنتاً. وأن تكون بنتي جميلة مثلك. يزداد الاحمرار.وتهمس: "أرجو أن ترزقي بنتاً. وأن تكون بنتك جميلة مثلك. أنتِ أجمل مني". لا يوّد الفتيات أن يتركنها تغادر المكان. شيءٌ من الحزم. نخرج. إلاّ أن الحركة أصبحت، الآن، مستحيلة، ضاعت الطاسة. اختلط الحابل بالنابل. وترك الصحفيون مواقعهم. وهجم الكتّاب المحترفون والهواة. ولم يلق أحد بالاً لرجال الأمن. قلت" أعتذر يا صاحبة السمو الملكي. لم يكن هذا ضمن البرنامج". ضَحكتْ. " سوف أريك كيف أفتح الطريق". تظاهرت أنّها سيّارة. وأخذت تزمرّ. "بيب!" "بيب!" "بيب!" فُوجىء المتجمعون بهذه العربة البشرية الملكية. وفُتح الطريق. قالت باعتزاز "أرأيت؟". هل سيصدّقني أحد إذا







قلت أن الأميرة تحوّلت، أمام عيني، إلى سيّارة تزمّر. "بيب!" "بيب!" "بيب!؟" كانت هناك مشكلة تشغلني. رسم فنان سعودي شاب لوحة جميلة تصوّر تشارلز وديانا. إلاّ أنه لفّ شعرها بملاءة سوداء، كنتُ واثقاً أن صحف الإثارة البريطانية ستنْقض على الصورة انقضاض الصقور. أو النسور. وتصوّرت العنوان. الأميرة المحجّبة! شرحتُ لها مشكلتي. وقلت " ما رأيك؟". قالت "أريد اللوحة". قلت " ولكنها ستثير الصحافة" قالت" لا يهمّني. أريد اللوحة". أعطيتها اللوحة. تأمّلتها. وبدأت تضحك. وجُنّت الكاميرات. وانتهتْ الزيارة. بعد نصف ساعة. بالضبط. ومرّ كل شيء بسلام". يا صاحبة السمو الملكي. أشكرك. سعد الجميع بلقائك"، " وسعدت أنا بلقاء الجميع. خصوصاً الفتيات السعوديات. بلّغهن سلامي". فيما بعد، تقول زوجتي"لم أرك تستقبل زوار الجمعية من قبل". "البروتوكول اقتضى أن أكون موجوداً". " ألم تتذكر البروتوكول إلاّ الآن؟". "للضرورات أحكام". " ألم تظهر الضرورات إلا الآن؟". هذا نقاش لا يبشّر بخير.

لا بدّ من إنهائه. أنظر إلى زوجتي. وأزمر، "بيب!"
"بيب!" "بيب!" وأضحك. ولا تضحك هي. ولا
تبتسم. مرّ كل شيء بسلام. ومن لم ينفعه ظنه لم ينفعه
يقينه. بعد أيام نشرت " نيوز أف ذا ورلد"، مجلة
الفضائح الأولى في العالم، صورة الأميرة وهي تتلقى
منّى اللوحة. كما توقعت. وكان العنوان كما،
توقعت، "الأميرة المحجّبة!". وتحت الصورة كلام
سخيف كثير. عن العرب المجرمين.الذي أهانوا الأميرة.
وحجّبوها. لا يختلف في سخفه عن الهراء الذي نشرته
الصحف البريطانية. عندما زارت الملكة اليزابيث
المملكة. وقالت الصحف إن المملكة اعتبرت الملكة
"رجلاً فخرياً". واستقبلتها على هذا الأساس. وصدّق
الجميع هذا السخف. حتى الملكة الذكية نفسها. التي
يبدو أن فكرة "الرجل الفخري" أعجبتها. الأميرة،
بالتأكيد، لم تكن رجلاً فخرياً. كانت أنثى حقيقية.
الأنثى! يا حظّك! يا حظّك! كلّمتها؟! وكلّمتك؟!
ماذا قُلت لها ؟! وماذا قالت لك؟! كان هذا كله قبل
عقد من الزمان. أو أكثر قليلاً. والآن ماتت الأميرة.

الآن أعـود إلى لنـدن. ولا أرى جـارتي. ولا أتوقّـع أن أراها في الصباح. منطلقة بالسيارة قرب منزلي. "بيب!" "بيـب!" "بيـب!" أعـود إلى الشـارع. حيـث كـانت تسـكن جـارتي. وأرى الزهـور. أطنـان مـن الزهـور. أطنان! ومواكب لا تنتهي. وهذا الصديق يسـأل " هـل سترثي ديانا؟". وهذا الصديق يسـأل. " ومـاذا سـتقول في رثـاء ديانـا؟". لا أدري. لا أدري. يمكـن التخطيـط لكل شيء تقريبـاً. إلاّ الشـعر. لا أدري هـل سـأرثيها. وماذا سأقول في رثائها. لا أدري ولكني أدري إني لـن أجد الصحفيـين المـتربصين كـل صبـاح. وفي الشـارع، الآن، جموع بشرية تمـور. أفكّـر في الفراشـة. البيضـاء. الجريحة. ودون أن أشعر تبدأ القصيدة:

يسألني حفيديَ الصغيرْ

وهو يرى الأنباء تتبع الأنباءْ

" ماذا جرى؟ "

قلت له:

●

كانت هنا فراشةٌ حَسناءْ

تأخذ بعض ضوئها من قلبها

ترشّه لعاشقي الضياءْ

تأخذ بعض لونها من روحها

وتصبغ السواد بالبهاءْ

تأخذ من أحلامها

وتمنح المحروم.. والمظلوم.. والمكلوم..

والشيوخ.. والأطفال.. والنساءْ

كانت إذا ما أقبلتْ

زوبعة من الحرير.. والعبير.. جُنّت الأشياءْ

وأغمض العالم مُقلتيه

وغاب في أفكارها الخضراء

●

" ماذا جرى؟ "

قلتُ له:

●

فراشةٌ حمقاءْ

ملّتْ من السماءْ

فانحدرت إلى صميم الشعلةِ الحمراءْ

واحترقتْ في شهقةِ الأضواءْ
وخلّفتْ وراءها المحرومَ.. والمظلوم..
والمكلوم.. والشيوخ.. والأطفال.. والنساءْ
مواكبٌ لا تنتهي من العزاء

●

أحسبني لمحتُ في عيونه
شيئاً من البكاءْ

تنشر جريدة الحياة " حكاية الفراشة ". وتبثّ وكالة "الأسوشيتد برس " خبراً عن القصيدة. وتترجم أجزاءً منها. يرسل الصديق جهاد الخازن خبر الوكالة، ومعه رسالة تقول "إلى أين نرسل القصيدة؟ إلى مايكل جاكسون؟ أو ألتون جون؟، " ويقول لي أخي عادل. "ما دخل فهد في الموضوع؟ اخترعت حوارك معه". لم أخترعه كلّه. الشعراء لا ينقلون الواقع. ولكن يفنّونه. أي يحولونه إلى فنّ. وقد يغيّرون بعض الشيء. هنا وهناك. وكاتبة عربية غاضبة. تكتب سجعات تعتقد أنها شعر. وترسلها لي. توبخني على رثاء أميرة

أجنبيـــة. وعــدم رثــاء النســاء العربيــات. أيّ نســـاء عربيــات؟!. النســاء العربيــات. والســلام. حســـناً! يــا سيدتي الكاتبة الغاضبَة التي لا تفهـم في الشعر. ولا في الأساطير. أعدك: إذا مّتِ قبلي، لا سمح الله، فسـوف أرثيـك بقصيـدة عصمـاء. وأرجـو ألا ترثيـني إذا مِــتُّ قبلك. اتفقنا؟. "حتى على الموت لا نخلو مـن الحسـد!" حتّى على الشعر! وصديق يسألني. " لمـاذا قلـت فراشـة حمقاء ؟". لأن الفراشة حمقاء. ألم يقـل العـرب " أحمـق من فراشة"؟ لا. قال العرب" أحمق من نعامة". وها أنذا الآن أقول " أحمق مـن فراشـة". أطلقهـا مثـلاً. و لم لا؟ هل كان الأعراب الذين يطلقون الأمثال بالجُملة أذكـى مـني؟ نحـن رجـال وهـم رجـــال. ونحـــن نعـــرف عـــن الفراشـات أكـثر ممـا كـانوا يعرفـون. والصحـف مليئـة بمقــالات التحليــل والتفســير. الأغبيــاء والغبيّـــات!. الأساطير لا تُحلل ولا تفسر، ولكن تُقبل على علاّتهـا. اشرحـوا إلى الأبـد. ولـن تقدّمـوا جوابـاً واحـداً مقنعـاً. أحبها الناس لأنها تحدّت العائلـة المالكـة. ولمـاذا تحـدّتْ العائلة المالكة؟ العائلة التي جعلتهـا أمـيرة. وحـوّلتهـا إلى

أشهر امرأة في العالم. من كان يعرف الليدي ديانا؟ مجرّد فتاة جميلة ارستقراطية. تعمل مساعدة مدرّسة حضانة. لم تذنب العائلة المالكة عندما طلبت من الأميرة الجديدة أن تتقيد بقواعد اللعبة القديمة. اللعبة الملكية. لعبة عمرها ألف عام، بالتمام والكمال. مرّة اقترب مهووس من تشارلز في استراليا وفي يده مسدس كان يُعتقد أنه حقيقي. ولم يتحرك تشارلز. لم يهرب ولم يختبىء. ظلَّ هادئاً ثابتاً في مكانه. قال فيما بعد " ميراث ألف سنة أوقفني مكاني". وديانا أرادت أن تتحدى ألف سنة من التقاليد. تمشي مع الناس العاديين كما يمشون. تمزح مع الناس العاديين كما يمزحون. تمارس رياضة "الجوكنج" كما يمارسها الناس العاديون. تأتي بعد منتصف الليل إلى قصر بكنجهام. وتقف أمام البوّابة المغلقة. وتتظاهر بالبكاء " أنا طفلة صغيرة. ضلّت الطريق. افتحوا الباب! افتحوا الباب!" وتعابثُ من تراه في سباق "أسكوت" الملكي. تغمز هذه بالشمسية. وترشّ الشمبانيا على هذه. تصرفات غير ملكية. حببتها إلى القلوب. لا! لا! لا! لم يكن هذا

السبب. أحبّها الناس لأنّها فشلت في زواجها. تعاطف الناس مع الضحيّة. الضحيّة؟ أيّ ضحيّة؟ من كان سبب الفشل؟ أصدقاؤها لهم رأي. وأصدقاء الزوج لهم رأي. مسألة فيها قولان. متناقضان تماماً. قال لي صحفي مقرّب من زوجها " هذه فتاة مختلّة. يجري عرق من الجنون في أسرتها. لا يستطيع أحد أن يعيش معها. حاول تشارلز المستحيل. من يستطيع أن يحيا مع زوجة مجنونة. تثور بلا سبب. وتكسر الأثاث. وترسل الصحون تئز. وتحاول الانتحار؟ ارتكب أكبر غلطة في حياته عندّما تزوجها". وقالت لي صحفية مقرّبة منها "تشارلز لم يحبها قط. كان قلبه، دوماً، مع المرأة الأخرى. حتّى في شهر العسل. اختار ديانا كما يختار فرساً شابة. زوجة بمهمّات محددة. إنجاب ولي العهد. وقصّ الأشرطة. ولا شيء غير ذلك. لا حب. ولا حنان. ولا مودة. أرتكبت ديانا غلطة العمر عندما تزوّجت هذا الرجل". عندما ينهار زواج من يجرؤ على إصدار حكم؟ من يستطيع توزيع اللوم؟ السكاكين كثيرة، ولا يعرف أحد من قتل الجمل. لم يدخل أحد

المخادع المغلقة، و لم ير أحد الصحون الـتي تـئز. عندمـا يموت الحب يظهر ألف فيلسوف. لا! لا! لا! هذا ليس السـبب. أحبّهـا النـاس بسـبب معاناتهـا. أيّ معانـاة؟ ولدت في قصر أكبر من قصر باكنجهام. صحيح ولكن المعانـاة لا علاقـة لهـا بمـال أو جـاه. أراد أبواهـا ولـداً وجـاءت بنتـاً. وانفصلـت أمّهـا عـن أبيهـا في سـن السادسة. تخلّت عنها، وتزوّجتْ رجـلاً آخـر. وتـزوّج أبوها امرأة أخرى. زوجة الأب التقليدية. كـره فـوري عنيف متبادل دائم. واضطـرت إلى الهـرب إلى المدرسـة الداخلية. لم يكن حولها من يؤنسها. الشـقيقتان أكـبر. والشـقيق أصغـر. كـانت وحيـدة. وزادتهـا المدرسـة الداخلية وحدة. لم تكن متفوقـة في الدراسـة. لم تُـرزَقْ الكثير من الذكـاء. قـالت مـرّة، علنـاً، أن حجـم مخّهـا أصغر من حبّة البازلاء. لم تتقن شيئاً في المدرسة سـوى السـباحة. لم تكمـل الدراسـة الثانويـة. وعرفـت الأمـير وهـي في السـابعة عشـرة. وتزوجتـه وهـي في التاسـعة عشرة. و كانت تسميه "سيّدي" طيلة الوقت. حتّى في المخدع. ربّما. دخلت عالماً مخيفاً. عمره ألف سنة. و لم

يهيئها أحد للسجن الملكي. للحياة المختلفة عن حياة مدرّسات الحضانة. الكاميرات المتلصصة. ومهمّة رسمية كل يوم. وزيارة رسمية كل أسبوع. وشعرت بالغربة تخنقها. وكان زوجها قريباً بعيداً. يقصّ الأشرطة. ويلعب البولو. ويصطاد. ويقرأ كتب الفلسفة. ويتحدّث مع حكماء الهنود. ويبحث عن دور لا يوجد في الدستور غير المكتوب. وهي تكره الخيول. ولا تحب الرياضة الدموية. ولم تقرأ كتاب فلسفة واحد في حياتها. هي تحب الرقص. والغناء. والديسكو. والمطاعم الرومانسية الصغيرة. والثياب الزاهية. وهو يحاسبها على ثمن هذه الثياب. وتنطوي على وحشتها. وعلى مرض "البيلميا". تأكل حتى تكاد تموت شبعاً. ثم تستفرغ حتى تكاد تموت جوعاً. أوشك الجسم الفاتن أن يصبح هيكلاً عظمياً. " البيلميا" مرض التعاسة. الناشئة عن كره الذات. ولماذا تكره جميلة الجميلات نفسها؟ لأن أحداً لم يحبها. ويضمها. ويهمس في أذنها أنها جميلة. لأن زوجها هو "سيدي". ولماذا لم يحبها أحد؟ لنعذر زوجها الذي كان مشغولاً

بحكماء الهنود. ولنعذر حماتها التي نذرت حياتها، كلها، لواجباتها الملكية. ماذا عن أمها؟ وماذا عن شقيقتيها ؟ وماذا عن شقيقها؟ وماذا عن صديقاتها؟ ولماذا طلبت العون من الدجّالين والدجالات و لم تطلبه من الأطباء؟ لو ذهبت إلى حفيد من أحفاد فرويد لشرح لها ما قاله " الأستاذ" عن نزعة الحياة ونزعة الموت ولكنّها فضلت البصّارات على الأساتذة. لا! لا! لا! ليس هذا السبب. أحبّها الشعب لأنها كانت تحب عمل الخير. كانت ترأس أكثر من مائة جمعية خيرية. ومن يحب عمل الشر؟ جزء أساسي من واجبات العائلة المالكة رعاية الجمعيات الخيرية. الملكة ترعى ألف جمعية. والملكة الأمّ. والأميرة آن. ما الجديد؟ آه! سؤال مهم جداً. ينفذ إلى قلب الموضوع. الجديد أن ديانا لم ترع أعمال الخير التقليدية. بالطرق التقليدية. ذهبت إلى مرضى الإيدز وصافحتهم. و لم يصافحهم أحد قبلها. وضمّتهم. و لم يضمّهم أحد قبلها. ذهبت إلى المجذومين ولمستهم. و لم يلمسهم أحد قبلها. وأكلت معهم. و لم يأكل معهم أحد قبلها. نزعة الموت! لم تدخل وتقصّ

شريطاً وتهرب. كانت تثرثر مع هذه العجوز عن التطريز. وتثرثر مع هذا العجوز عن الأفلام. وتبتسم الابتسامة الشهيرة. وتضحك. الضحكة الشهيرة. وتترك خلفها الكثير من الأمل. من الرغبة في الحياة. كانت ترتعد في قبضة الخوف من الموت وكانت تثير الحياة. حيثما ذهبت. العالم الثالث المنسي. الجائعون في أدغال أفريقيا. والنائمون على أرض كلكتا. ديانا كانت هناك بينهم. تبتسم. وتضحك. وتغرف لهم الطعام بيدها. وترقص معهم. والألغام! المشكلة الصامتة التي حولّها اهتمام الأميرة إلى مشكلة صاخبة. شغلت العالم. ودفعت الدول إلى الإسراع بعقد مفاوضات. بهدف الوصول إلى اتفاقية. قد تُسمى اتفاقية ديانا تمنع الألغام الأرضية. باستثناء الذكيّة منها. الألغام الأمريكية. وأمريكا متخصصة في صنع الأسلحة الذكية. والسياسات الغبيّة. وماذا تفعل الأميرة في حقل ألغام؟ نزعة الموت! وكانت هناك لتنقذ العالم من شرور الألغام. نزعة الحياة! لغم سينفجر. ويفجّر الأميرة. نهاية رائعة. الأميرة الشهيدة. لا! لا! لا! ليس هذا

السبب. أحبها الشعب لأنها انتصرت على ضعفها. تغلّبت على شعورها بانعدام الثقة. تغلّبت على البلاط المليء، ككل بلاط، بالهمسات القاتلة والمؤامرات. تغلّبت على الحياة الروتينية. وتحوّلت المراهقة الخجول إلى امرأة خارقة الدهاء. والدهاء غير الذكاء. وشرح هذا يطول. وليس هذا موضعه. الفراشة الحمقاء الداهية! التي استقطبت اهتمام الكرة الأرضية. كلّها. التي تحاور الملوك بنفس السهولة التي تحاور بها أبناء الأرصفة المشردين. أمل الخلاص لكل فتاة تأكل وتستفرغ. وتكره نفسها. أمل الخلاص لكل شاب. يفتقر إلى الثقة. فعلتها الأميرة فلماذا لا أفعلها أنا؟ الأيقونة. القديسة. النفق في آخر الضوء. الفادية الجديدة. ديانا ماتت من أجل خطاياكم. كل خطاياكم. الأصلية وغير الأصلية. أول قديسة في التاريخ تموت ومعها عشيقها. في سيارة مرسيدس. منطلقة بسرعة الشوق. في نفق في باريس. الموت في أول النفق. لا! لا! لا! لم يكن هذا السبب. كل هذا تهويل ومبالغة. كانت أنثى جميلة جداً. وكانت امرأة

أنيقة جداً. فتنتكم بجمالها. وجذبتكم بأناقتها. قالت زوجة الأب إن بوسع ديانا أن تضع منديلاً رخيصاً على رقبتها فيتحول إلى آخر صيحة في عالم الأزياء. والفضل ما شهدت به زوجات الآباء. لو كانت أقل جمالاً هل كان أحد سيحبها هذا الحب؟ قولوا! قولوا! لو كانت قبيحة هل سيتذكّر أحد منكم أنها ضمّت مرضى الايدز؟ وأنها لامست المجذومين؟ تكلّموا بصراحة! قولوا إنكم عشقتم حسنها. حسنها الخارجي. لم ير أحد منكم حسنها الداخلي. هذا إذا كان لها حسن داخلي. لم تروا إلا العينين المشاغبتين. والشعر الأشقر. والشفتين الورديتين. والقوام الممشوق. والخصر الذي كان بإمكانه أن يلبس خاتم الخطبة الشهير. الذي قدّمه تشارلز. والخاتم الثاني الشهير. الذي قدّمه دودي. والصدر الذي كانت تسمح له، بين الحين والحين، بإطلالة من فرجة الفستان الأسود. رأيتم هذا كله. وفتنكم هذا كلّه. ملكة الإغراء الجديدة. نجمة هوليود التي تسترت تحت لقب صاحبة السمّو الملكي. أميرة الأزياء. أميرة الفساتين البرّاقة. التي قررت

قبل موتها أن تتخلّص منها. من ٧٩ فستان. في مزاد في أمريكا. يُخصص ريعه للخير. وكان ريعه مليوني جنيه. وسيربح الذين اشتروا الفساتين عشرات الملايين. خصوصاً الآن. بعد أن تحولت إلى قديسة. أحببتموها كما أحببتم مارلين مونرو. وللأسباب نفسها. الرجال يفضلون الشقراوات. وديانا قالت مرة. لمسؤول عربي كبير "أنتم العرب تحبّون الشقراوات أمثالي. أليس كذلك؟ " وصمت المسؤول الذي لم يتوقع السؤال. أحببتم شقراء هوليود. وأحببتم شقراء لندن. ووجوه الشبه بين الشقراوتين كثيرة. شقراء هوليود أكثر امرأة صُورت في زمانها. وشقراء لندن أكثر امرأة صُورت في التاريخ. شقراء هوليود لم تعرف الزواج السعيد. ولا شقراء لندن. شقراء هوليود تعطشت إلى الحب الحقيقي كما تعطشت شقراء لندن. وماتت شقراء هوليود في السادسة والثلاثين في ظروف مأساوية. وماتت شقراء لندن في السادسة والثلاثين.في ظروف مأساوية. في قمة النضج. قبل أن تأتي الأربعون. وعمليات شدّ الوجه. والهارمونات. والسيلوكين. ماتت في الوقت المناسب.

دعوني أحدثكم عن مارلين مونرو. نورما جين. كنت في لوس أنجليس عندما ماتت. أو انتحرت. أو قُتلت. كنت في الثانية والعشرين. قليل الخبرة بالحياة والموت. والانتحار. والقتل. سمعت الخبر بهدوء. وسمعه الناس حولي بهدوء. لم يخرج أحد إلى الشوارع. ولم تتدفق الزهور. ولم يزر أحد المنزل أو الضريح. ذهبت ذلك المساء إلى هوليود. إلى قلبها "هوليود بوليفارد". ولم يكن هناك ما يدل على أن ملكة الإغراء ذهبت. لم أر وجوماً على وجه أحد. ولم أر دموعاً في عين. جاءت الأسطورة فيما بعد. واشتبكت مع أسطورة كينيدي. وقيلت أشياء كثيرة جداً. ولا يعرف أحد الحقيقة. المهم أن مارلين تحولت إلى أسطورة. شغلت الناس بعد موتها كما كانت تشغلهم في حياتها. شمعة في الريح! أغنية ألتون جون التي غناها في ذكرى مارلين. وبدأها " وداعاً نورما جين". كانت ديانا تحب هذه الأغنية. وكانت تحب الكثير من الأغاني. ومنها أغنية مايكل جاكسون المسمّاه، بمحض المصادفة، "ديانا القذرة". قرّر ألتون جون أن يعيد صياغة الكلمات. وأن يحوّل

الأغنية. من وداع حزين لمارلين مونرو. إلى وداع حزين لديانا. ولكن هل يجوز هذا؟ هل يجوز أن يبقى اللحن وأن تتغيّر الكلمات؟ هل يجوز أن تُسلب النجمة المنتحرة أغنيتها، وتُهدى الأغنية السليبة للأميرة؟ ما بين الخيّرين حساب. ولا بين الأساطير. ومن دخل بين أسطورتين لقي مالا يرضيه. المهم أن الجموع عشقت الأغنية الجديدة (المزيّفة) وبيع منها أكثر مما بيع من أي أغنية في التاريخ. ويتوقع أن تدّر أكثر من ١٥ مليون جنيه. تذهب كلها إلى صندوق ديانا الخيري التذكاري. ولماذا عشقت الجموع الأغنية الجديدة (المزيفة)؟ لأنها كانت تصوّر مشاعر الشعب وهو يودّع أميرة الشعب. اللقب الجديد الذي صاغه رئيس الوزراء. توني بلير. وهو يكاد يبكي أمام الكاميرات. السياسي الحاذق. الذي تلقّى ذبذبات الشعب. قبل القصر. وقبل فليت ستريت. وقبل الناس كلهم. وهل جاءت "أميرة الشعب" من قلبه؟ أم جاءت من سحرة الحزب الذين ينفثون في عقد الإعلام؟ لا نعرف الجواب. ونعرف أن اللقب سرى سريان النار في الهشيم. وسريان الأغنية:

وداعاً، وردة انجلترا !

ولتكبري في قلوبنا إلى الأبد.

كنت تلك الروعة

التي تسللت إلى كل حياة تتمزّق

كان صوتك مرتفعاً ينادي الوطن

وكانت همساتك تواسي المتألمين

أما الآن فأنت مِلك السماء

تكتب النجوم اسمك

أتصوّر أنك عشت حياتك

شمعة في الريح

شمعة لا تذوي عند المغيب

ولا عندما ينهمر المطر

وسوف تظل خطاك دوماً هنا

تنزل وتمشي

فوق تلال انجلترا المخضرّة

احترقت الشمعة

قبل أن تحترق اسطورتك

التي سوف تبقى طويلاً

فقدنا بفقدك الجمال

وبدت أيامنا فارغة بدون ابتسامتك

إلا أننا سنحمل معنا هذه الشعلة طيلة الوقت

نحملها من أجل طفلتنا الذهبية.

الحقيقة تدفعنا إلى الدموع

رغم أننا نحاول أن نقاوم

لا تستطيع كلماتنا كلّها

أن تصف الفرح الذي جلبته لنا على مدى السنين.

وداعاً، وردة انجلترا!

من وطنٍ ضاع بعد أن فقد روحك

وطن سيفتقد أجنحة حنانك

أكثر مما تتصورين

آه ! الموت والرثاء. توأمان لا ينفصلان. وماذا قال صاحبي القديم المتنبي في رثاء صاحبة " الوجه المكفن بالجمال؟ " قال:

أطاب النفس أنك مُتَّ موتاً

تمنته البواقي .. والخوالي

حتّى على الموت! وماذا قال في رثاء الجميلة الحقيقية التي أحبّها ولم يجرأ على إعلان حبه؟ قال :

فليتَ طالعة الشمسين غائبةٌ
وليت غائبة الشمسين لم تَغِبِ
وليتَ عينَ التي آب النهار بها
فداء عيْن التي زالت.. ولم تؤُبِ

يخيل إليّ، والحديث عن الرثاء، أن شعراء العرب يتحدثون بعاطفة لا توجد في قصائد الرثاء الغربية. تريدون الدليل؟ حسناً! الدليل هو القصيدة التي كتبها شاعر البلاط الفخري على أثر موت ديانا. وقبل أن أنقل اليكم القصيدة لابدّ أن أقول شيئاً عن هذا الشاعر. أعني عن هذا اللقب. يعود اللقب، ككل الألقاب في بريطانيا، إلى عهود مضت. يوم كان في البلاط شاعر حقيقي ينقطع لخدمة البلاط. أما اليوم فاللقب مجرد تكريم رمزي. تختار الملكة أحد الشعراء المرموقين لهذا المنصب. والأدق أن نقول إن رئيس الوزراء

هو الذي يختاره. والأكثر دقة أن نقول إن رئيس الوزراء يعتمد على لجنة من الأدباء والشعراء. الذين يختارون شاعر البلاط الفخري، إذن، هم أقرانه وأنداده. وهم يختارونه لمنصب لا يجعله أمير الشعراء. ولا حتى وزيرهم. مجرد تكريم رمزي. يتقاضى مقابله مكافأة سنوية لا تكاد تذكر. ويتوقع منه، بحكم المنصب. أن يكتب قصائد في المناسبات الملكية. في الأفراح والأتراح. شعر المناسبات الذي يبغضه، بحق، نقاد العرب المحدثون. حين يصدر الشعر من المناسبة وحدها. ماذا قال شاعر البلاط عن الأميرة التي ماتت في أوج ازدهارها ؟ قال تيد هيوز:

البشر انهار عديدة

لا تريد سوى الجريان

الفجيعة المقدسة. والضياع

تجعل الكثير واحداً

البشر مقدسون متوّجون

(...)

الزهرة على المدفع

هل فهمتم شيئاً؟ ولا أنا. ولا القراء البريطانيون. شعر مناسبات حداثي. فلنعد إلى الشعر الجميل. الشعر العربي الجميل. الشمس التي تبقى والشمس التي تغيب. معنى جميل. محفور في الذاكرة الجماعية العربية. وهاهو ذا الصديق الشاعر عبد الرحمن رفيع يتحدث عن ديانا. الشمس التي رحلت. وخلفت الشمس الأخرى :

ديانا.. سماءٌ من الحسن باقٍ
ينوّر فينا سواد الكروبِ
خلودٌ يقول العجيب له :
"جعلت عجيبي.. غير عجيبِ"
ديانا .. حبيبة كل الألى
بوجدٍ تعدّى حدود الحبيبِ
كأنّ ديانا هي الشمس نادت
" تعالوا فقد آن يوم مغيبي"
فهبَّ الملايين نحو السنا
يريدون أن يأخذوا بنصيبِ
ستبقى أميرة كل الزمانِ
بهاءً يضيء ظلام الغروبِ

ستبقى عطاءً لنا أبديـــــــــاً
وروحاً فتيّاً.. بدون مشيـــــبِ

أميرة كل الزمان ؟ عطاء أبدي؟ شيء من المبالغة. نغفـره لأولئـك الذيـن يتبعهـم الغـاوون. ويتبعـون الجميلات. وداعاً، وردة انجلـترا! انجلـترا وحدهـا؟ هـذا الشاب الأسود الداكن غاضب. يقول للمذيعة " كانت أميرة ويلز. كيـف تتحـدّث الأغنيـة عـن انجلـترا ؟" ويضيف "أنا من ويلز. كـان علـى الأغنيـة أن تتحـدث عن ويلز". تستغرب المذيعة أن يجيء شاب أسود داكـن من ويلز. ويشرح الشاب الغاضب أن أسـرة مـن ويـلز تبنّته وهو طفل. ونشأ وهو لا يعرف موطناً غـير ويـلز. وجاء الآن من ويلز يودّع أميرته. أمـيرة ويـلز. الشـاب الأسود وأميرته الشـقراء. أمـيرة الشـعب. أمّـة وحّدهـا الحزن. كما قـالت الملكـة اليزابيث. في خطـاب قصـير مؤثر. ألقته من شرفة القصر. على الهـواء مباشـرة. وفي الخلفية تمـور الحشـود الحزينـة. وتحدثـت عـن إعجابهـا بديانا. وشخصيتها التي لا تُنسـى. والـدروس المسـتفادة

من حياتها. تكلمت ملكة. وتكلمت جدّة. عاشت حزنها بطريقتها الخاصة. بعيداً عن الأنظار. مع حفيديها. كانت الملكة تردّ على انتقادات الناس. التي حملتها الصحف. أينك يا صاحبة الجلالة؟ لماذا لا تشاركيننا الحزن؟ لماذا لا تتحدثين معنا؟ لماذا لا تنزلين معنا إلى الشارع؟ الملكة تقرأ الجرائد كل صباح. سطراً سطراً. وتعرف متى تتجاهل ما تقرأ. ومتى تستجيب. هذه المرّة قررت أن تستجيب. ونزلت من أعماق القصر الاسكتلندي. إلى الشارع. وخاطبت الباكين والباكيات. وخالفت البروتوكول. وأمرت بتنكيس العلم. الملكة، بخلاف الصورة الشائعة، إنسانة طبيعية جداً. مرحة جداً. منطلقة جداً. ولكنها أسيرة الواجب. سجينة ألف عام من التقاليد الملكية. التي تدرك، بعقلها، أنه لابد من تغييرها. وتعرف، بقلبها، أن تغييرها سيقود، بعد حين، إلى تغيير الملكية. دعوني أحدثكم قليلاً عن الملكة. رأيتها من شهور قليلة في مناسبة خاصة. كانت تقوم بزيارة شخصية. بعيدة عن البرنامج والبروتوكول والأضواء. رأيتها. كما لم

ترونها. على سجيتها. كان بين الموجودين ولد في العاشرة. بدأ يسألها "يا صاحبة الجلالة ! هل تذهبين إلى السينما؟". ابتسمت وقالت "كنت أذهب في الماضي. أمّا الآن فأرى بعض الأفلام في القصر. بجهاز عرض بدائي". قال الولد "وهل تذهبين إلى المسرح ؟ ". ابتسمت وقالت "نعم. بين الحين والحين ". لم ينته فضول الولد." هل يخلون المسرح من الجمهور قبل قدومك ؟ " كادت الابتسامة تصبح ضحكة." لا ! لا! يبقي كل إنسان في محله". انتقل الحديث بين الكبار إلى الكومبيوتر. وقالت الملكة إنها لم تتقن، بعد، التعامل مع هذا الجهاز. انطلق الولد، وهو من شياطين الكومبيوتر الصغار، وبدأ يحاضر. "يا صاحبة الجلالة ! المسألة سهلة جداً. أسهل مما تتصورين. كل ما تحتاجين إليه هو شيء من التدريب كل ما عليك أن تفعليه..". كانت الملكة تصغي باهتمام وتبتسم. وسكت الولد. وجاء موضوع آخر. بلا مقدمات اندفع الولد يشكو للملكة. " يا صاحبة الجلالة ! لديّ قريب مزعج جداً. تستطيعين أن تعتبريه أكبر مزعج في العالم". عصب

حسّاس يلمسه الولد الصغير دون أن يدري. وتقول الملكة "نحن لا نستطيع أن نختار أقرباءنا. ولكن علينا أن نتعايش مع أقربائنا". الأقرباء ! العائلة ! العائلة هي المحور الذي تدور حوله حياة الملكة. كما قالت لي مرة بنفسها. كنت ضمن وفد رسمي زار بريطانيا زيارة رسمية في سنة ١٩٨٤. وشاء البروتوكول أن أجلس بقرب الملكة والبروتوكول أمره عجيب. أحيانا يضعك على يمين الملكة. وأحياناً على يسار الحاجب. شأنه شأن الخيارة الشهيرة في المثل الشهير البذيء. وضعني البروتوكول بقرب الملكة. وتحدثنا طويلاً. ساعتين أو أكثر على مدى الغداء. عن مواضيع عديدة. من ضمنها اللورد بيرون. واكتشفت أن الملكة تعرف عن الشاعر ما لا يعرفه بعض جهابذة الأدب الانجليزي. وقالت عنه كلاماً غريباً بعض الشيء. لا أستطيع أن أرويه لكم الآن. حتّى لا تهدر الامبراطورية البريطانية دمي. بتهمة إفشاء أسرار الملكة. الشعرية. ولكني أستطيع أن أنقل لكم ما قالته الملكة عن العائلة. " لا أتصور معنى لحياتي خارج عائلتي. عائلتي هي حياتي كلّها". لم

تفهم الأميرة الحسناء أن بقاء العائلة المالكة، أي عائلة مالكة، رهن بتماسكها ووحدتها. لم تفهم أن المشاعر الشخصية، بالغة ما بلغت قوّتها، لا ينبغي أن تُهدّد، على أي نحو، بقاء العائلة. أرادت أن تأكل الكعكة وتحتفظ بها. أميرة الشعب صاحبة السمّو الملكي. أميرة القلوب أميرة ويلز. ملكة القلوب أم ملك المستقبل. أرادت المجد من طرفيه. أبهة المُلك وعشق الجماهير. شيء من التناقض. ذكر بعض الكتّاب بإيفا بيرون. ايفيتا. التي كانت ترتدي معاطف الفرو الفاخرة. وعقود الماس الثمينة وتخطب في المستضعفين. المحرومين من القمصان. نصف القلب للشهرة والسلطة والثراء. والنصف الباقي للمساكين والمظلومين. ماتت ايفيتا في الثالثة والثلاثين. مريضة بالسرطان. وخلّفت أسطورة لا تمرض. وجوه شبه محدودة بين الاسطورتين. ولكن المقارنات لا تنتهي. وطوفان التمجيد يتدفّق. وهنا وهناك تظهر، على استحياء، مقالات تسبح ضد التيّار. مقالة تنتقد أم الملك القادم على ركضها بعد منتصف الليل مع ولد لاعب. ومقالة تذكّر الناس أن كل الذين

عملوا مع الأميرة لم يستطيعوا تحمل تقلباتها ورحلوا. ومقالة تقول إن الأمّة لا تمر بحزن جماعي ولكن بجنون جماعي. أصوات ضائعة في البرّية. بين الزهور. والورود. أطنان الورود. "أنا فتاة قوية. أستطيع حمل باقة من الورود". هل تستطيع حتى أقوى الفتيات أن تحمل كل هذه الورود؟ وكل ورد تحمل في بطاقة على صدرها اسم قاتلها، كما قال أمل دنقل. والتنبؤات لا تنتهي. الملكية الجديدة. البروتوكول الجديد. التقاليد الجديدة. الأميرة التي أعادت، بموتها، صياغة المؤسسة. وصديقي المبتلى بالواقعية يؤكد لي أن شيئاً لن يتغير. تنتهي الهيستيريا وتعود حليمة إلى عادتها القديمة. وأنا لا أستطيع التنبؤ. أنا لست عرّافاً كالذين كانت ديانا تهوى زيارتهم. وماذا تريد امرأة جميلة غنية معافاة أن تعرف من العرّافين؟ حدثني من لا أثق فيه. عن مالا يعرفه. عن مصدر كذبه أكثر من صدقه. أن الأميرة لم تسأل العرّافين والعرّافات إلا عن موضوع واحد. الحب. صديقي المبتلى بالواقعية يتنبأ، بكل تهور، أن موت ديانا زوبعة في فنجان. زوبعة هائلة في فنجان

هائل. ولكنها زوبعة زائلة. موقف صديقي الواقعي يذكّرني بموقف ستالين من البابا. كان ستالين كلّما جاء ذكر البابا يتساءل بسخرية " كم فرقة عسكرية عند البابا؟". ذهب ستالين. وذهبت فرقه المسلّحة. وبقي البابا. بلا فرق عسكرية. ذهب ستالين لأنه كان مجرد ديكتاتور. وبقي البابا لأنه نصف رجل ونصف أسطورة. صديقي الواقعي يستطيع تحليل الحكّام والدساتير والجيوش. ولكنه لا يفهم الأساطير. من متطلبات الأسطورة أن تنتهي نهاية دامية. جريمة قتل. الاستخبارات البريطانية! قتلتها كما قتلت من قبل. وستقتل من بعد. نظرية المؤامرة الشهيرة. شهرة ديانا. وها هي ذي النظرية أمامكم شعراً عربياً. من نظم شاعر عربي من اليمن. اسمه يحيى عبد الله الوزير:

فتداعى التتار في عتمة الليل..

وصبّوا عليكِ حقد القبيلةْ

صوبّوا نحوك السهام.. وكلٌّ

بجنونٍ مضى ليشفي غليلهْ

وعلى جسمكِ المضرّجِ جاسـوا
بعيـونٍ تكحّلتْ بالـرذيلـةْ
ثم ساروا.. وراء نعشك يبكون
ريـاءً.. ويندبون الفضيلـة

لم يحدد الشاعر، ولا ينبغي له أن يحدد، من هم "التتار". الذين فعلوا ما فعلوه بالأميرة الجميلة. ولكن المواطن العربي حدد. والأخ العقيد حدد. الاستخبارات البريطانية. خبرة طويلة حوادث السير التي تُرتّب. قتلتها. في حادث سيارة. بلا شك أو ريب. وقبلها قتلت الملك غازي في حادث سيارة. وقتلت أسمهان في حادث سيارة. ولكن الملك غازي كان يقود سيارته بنفسه. ولم تكن لدى بريطانيا مصلحة من أي نوع في قتل أسمهان. وديانا كانت في سيارة يقودها سائق الفايد. لا! لا! لا! قتلتها الاستخبارات البريطانية. التي كانت لا تريد لأم الملك المقبل أن تتزوج رجلاً مصرياً. نصف سعودي إذا أردنا الدقة. أمه سميرة خاشقجي أخت عدنان خاشقجي الشهير. كانت امرأة ممتلئة

بطموحات أدبية. تستند إلى كثير من المال. وقليل من الموهبة. كتبت عدة روايات. باسم بنت الجزيرة العربية. لم يقرأها أحد. لا في الجزيرة ولا خارجها. وأصدرت مجلة اسمها "الشرقية". لا أدري من كان يقرأها. دودي الفايد! دودي؟! كيف يقبل رجل أن يسميه أحد دودي؟! جزء من الأسطورة. هل كان بوسع أحد أن يلفظ "عماد؟" هل كان بوسع الأميرة أن تقولها؟ المهم أن الاستخبارات قتلتها لأنها لا تريد أن تتزوج الأميرة البريطانية نصف مصري ونصف سعودي اسمه عماد. أو دودي. كيف قتلوها؟ المسألة بسيطة جداً. الحارس البريطاني. ولكنه كان يعمل عند الفايد. يا لسذاجتك! يا لسذاجتك! كان جندياً في الجيش. وتحول إلى الاستخبارات. التي زرعته عند الفايد. وفي اللحظة المناسبة. لحظة الصفر. دفع بعجلة القيادة في اتجاه الحائط. خطة محكمة. مرسومة بدقّة. ولكن كان بالإمكان أن يموت هو في الحادث. لماذا يقتل شاب في مقتبل العمر نفسه؟ يضحّي بنفسه يا أخي. على طريقة الذين يفجرون أنفسهم في القدس

فداء الوطن. لا! لا! لا! المؤامرة الحقيقية من تدبير محمد الفايد. صاحب هارودز. ما غيره. الذي يضع وجهه بدلاً من وجه الفرعون في القاعة المصرية. والذي صرّح أنه يريد أن يدفن، بعد عمر طويل، في هارودز. رتب كل شيء. رتب الإجازة. واشترى اليخت خصيصاً للزيارة. ورتب اللقاء. يا جماعة! يا جماعة! هل يستطيع أحد أن يرتب حُبّاً؟ يستطيع أن يقنع ابنه، أو يأمره، بحب الأميرة. ولكن كيف يقنع الأميرة بحب ابنه؟ مؤامرة والسلام! اللقاء مؤامرة. والحب مؤامرة. والموت مؤامرة. مؤامرة داخل مؤامرة داخل مؤامرة. وأنت ما رأيك؟ رأيي أنها حادثة كالتي تحدث في كل دقيقة في كل مكان. سيارة مسرعة اصطدمت. وهذا كل ما هنالك. يا لسذاجتك! يا لسذاجتك! يا لسذاجتك! قد أكون ساذجاً. ولكني لا أؤمن بنظريات المؤامرة الساذجة. أنا أرى أن الحقائق تغني. عن الأوهام. آه! الأوهام. ولكن هل يمكن أن تولد أسطورة إلا فوق مهد من الأوهام؟ من الذي يريد الآن أن يسمع الحقائق عن الأميرة؟ أميرة الانتقام. التي خططت، بعناية،

لكتاب شرير. اسمه " ديانا: قصتها الحقيقية". كل سطر فيه جاء منها. وكانت تستهدف تدمير العائلـة المالكـة. وزوجها بالذات. أميرة الانتقـام. الـتي قـالت في مقابلـة تليفزيونيـة شـريرة كلامـاً شـريراً. لا يسـتهدف سـوى حرمان زوجها من العرش. ونقل العرش إلى ابنها. أنت تعرف زوجها جيداً. أليس كذلك؟ لا! عامـة النـاس لا يعرفون الملوك وأولياء العهود جيداً. كل من اعتقـد أنـه صديق ملك تلقى مفاجأة غير سـارة. لا أعرفـه جيـداً. ولكني لقيته في مناسبات عديدة. وتحدثت معه طويـلاً. عن أشياء كثيرة. لا أستطيع أن أرويهـا لكـم. حتـى لا تهدر الامبراطورية البريطانية دمي. بتهمة إفشـاء أسـرار ولي العهد الروحية والفكرية والزوجية. ولكنني أستطيع أن أؤكد لكم أنه إنسان مثقف جداً. ذكي جداً. يهتـم بالعاطلين في بريطانيا. وبالمعوزين في بنجلاديش. ويـود حماية الطبيعة من التلوّث. والمـدن مـن المبـاني القبيحـة. وهو إنسان مليء بالتسامح. يحترم كل الأديان. ويؤمـن أن للمعرفة أكثر من طريق. يقضـي جـل وقتـه في جمـع التبرعات لمشاريعه الإنسانية العديدة. والمشكلة الكـبرى

في حياته أن الصحافة البريطانية تكرهه. كراهية التحريم. ولا تخفي هذا الكره. وقد فشل كل خبراء العلاقات العامة الذين استعان بهم في حل المشكلة. إنسان يختلف. تماماً. عن ديانا. لم يحضنه أحد ولم يضمّه في طفولته. ونشأ غير قادر على الاحتضان والضمّ. لا يحب قضاء الليل مع المصابين بالإيدز. يفضل قضاء الليل مع الباحثين الذين يحاولون الوصول إلى دواء للإيدز. ولا يحب المطاعم الرومانسية. يحب أن يلتقي بأصدقائه في حمى القصر. وهو صالح للمُلك تماما. وما كان لديانا، كائنة ما كانت عيوب زوجها، أن تحاول حرمانه من العرش. بألف حيلة وحيلة. أميرة الانتقام. وما كان لها أن تتوقع أن المؤسسة ستقابل مكرها بالتسامح. مؤسسة الألف عام والقصور والخيول والمواكب والطقوس والمستشارين الرماديين الذين يرتدون، صيف شتاء، بدلاً رمادية. مؤسسة نشطة رغم تقدمها في السن. ترد الصاع صاعين. كتاب بكتاب. خبر مدسوس بخبر مدسوس. مقابلة بمقابلة. "وهل في "الحرب" أماه ارحميني؟". وكل شيء

جائز في الحب والحرب. ومن الذي بدأ المعركة؟ من الذي أطلق الطلقة الأولى؟ من الذي رفض أن يذهب بهدوء؟ أوه! انظر ماذا فعلت. أفسدت كل شيء. بعد قليل سوف تزعم أن ديانا كانت تجوب الأزقة بعد الظلام وتمتص دماء الأطفال. هل أنت من جماعة تشارلز ؟ أنا أجنبي وشاعر كهل وبيروقراطي على وشك التقاعد. لست من جماعة أحد. مجرد مراقب فضولي. قلت لكم أن الأساطير تفسدها الحقائق. هل صدقتموني الآن ؟! باستثناء تلك الحقائق التي تساهم في تلوين الأسطورة. دعوني أحدثكم عن لقائي الثالث بديانا. قبل أن تنسوا أن تسألوني. وقبل أن أنسى أنا. تحدث للمرء عندما يقترب من الستين أشياء غريبة. تشحب بعض الألوان. تضيع بعض التفاصيل. تختلط السنين، أو السنون، بعضها ببعض. من الأفضل أن أكتب الآن. قبل أن أنسى شيئاً أو أشياء. الزمان : صيف ١٩٩٢. المكان منزل السفير المصري الدكتور محمد شاكر، في مايفير، لندن. المناسبة: حفل غداء على شرف صاحبة السمو الملكي أميرة ويلز، التي زارت

القاهرة في تلك الفترة. كنّا، زوجتي وأنا، بين الضيوفَ وجاءت ديانا. وأشرقت الشمس كالعادة. كلمات السلام المألوفة. جلسنا على المائدة. وبدأنا نتحدث. سألتها " صاحبة السّمو ! هل ولداك، مثل أولادي، مغرمان بألعاب الكومبيوتر؟". برقت العينان. "بشكل لا يُصدّق. لا يصدّق. لا أستطيع انتزاعهما من الجهاز إلا بالقوّة". "وهل ينفقان مصرف الجيب كله على شراء ألعاب جديدة؟". لا ينبيك مثل خبير. "كله. كله. وأكثر منه". جاءت أكلة مصرية امتدحتها الأميرة. تذكرت أني قرأت، في مكان ما، أن الأميرة حصلت قبل زواجها على دبلوم في الطبخ. والحديث ذو شجون. قلت "هل تطبخين بنفسك؟" " نعم. أحيانا وجبات خفيفة لا تحتاج إلى مجهود". تصمت قليلاً وتقول : "ماذا عنك ؟ هل تطبخ ؟" سؤال مفاجىء بعض الشيء. والبادي أظلم. زوجتي، على بعد مقعدين. ترهف السمع في انتظار الإجابة. الصدق منجاة. "أعرف كيف أطبخ. ولكن زوجتي لم تعد تسمح لي بدخول المطبخ". تبتسم وتلتفت إلى زوجتي.

"هل هذا صحيح ؟ " وترد زوجتي " بكل تأكيد ".
"ولماذا لا تسمحين له بدخول المطبخ؟ " تقول زوجتي بصدق غير دبلوماسي " لو شاهدت المطبخ عندما ينتهي لتصورت أنّه كان ميدان معركة. أحتاج إلى ساعات لأعيد ترتيب كل شيء. أجد قشور الطماطم في الأدراج". الضحكة الشهيرة. من الواضح أن الأميرة لم تر قشور طماطم في درج من قبل. أنظر إلى زوجتي بحنق مكظوم. وتبتسم هي. ولا ابتسم أنا. هل بوسع المرء أن يقشّر الطماطم دون أن تسقط القشور في مكان ما؟ قانون الجاذبية. الذي يسري حتّى على قشور الطماطم. وهل يُستغرب إذا كانت بعض الأدراج مفتوحة أن تسقط بعض القشور فيها ؟ معظم الحاضرين يصابون في حضرة الأميرة بانبهار شديد يمنعهم من الحديث. أما أنا فلا أشعر، بفضل الله، بانبهار أمام أحد. وأسألها عن أولادها. ومصروف جيبهم. وهواياتهم غير الكومبيوترية. وهي تبتسم وتجيب. انتهى الطعام. وانتهت طقوس ما بعد الطعام. قلت لها وأنا أودّعها "نحن جيرانك في الشارع. لماذا لا

تأتين لتناول الشاي معنا؟". " أوه ! يسعدني ذلك. يسعدني جداً". فيما بعد. أقول لزوجتي " متى ندعوها؟". "ولماذا ندعوها ؟". "من واجب السفير أن يحسّن العلاقات على كل المستويات. لصالح دولته ". "لماذا لا ندعو، إذن، الملكة الأم ؟ ". " الملكة الأم ليست جارتنا. وأشك أنها سوف تقبل الدعوة ." "ومن قال لك أن ديانا ستقبل الدعوة ؟ ". "ألم تسمعيها بنفسك؟." "كانت تجاملك " " ربما. وربما كانت تقول الحقيقة لن نعرف إلا إذا دعوناها ". " لا أرى مبرراً لدعوتها ". عندما يتجاوز عمر الزواج ربع قرن يعرف الزوج كيف يفرّق بين القرار النهائي والقرار غير النهائي. وهذا قرار نهائي. لن تدعو زوجتي الأميرة ولو طالت جيرتنا عشرات الأعوام. يحسن بالزوج الحصيف أن يتقبل القرار النهائي بروح رياضية. ولا يتساءل عن حكمته ومراميه. عالم الزواج العجيب. الذي يتم التفاهم فيه بلا كلمات. لم تكن ديانا زوجة مثالية. ولكنها كانت أمّا مثالية. بالمعيار الغربي على أية حال. على هذا يجمع المراقبون. الأعداء والأصدقاء.

والمحايدون. كانت تحب ولديها وليام – الذي يُسمّى ولز – وهنري – الذي يُسمّى هاري – حُبّاً جمّاً. تقضي معهما الإجازات. تأخذهما إلى جبال التزلج في سويسرا. وإلى الشواطئ. وإلى يخت الفايد. كانت تحرص، كما قال شقيقها، أن تجعل روحيهما تغنيان. كانت تريد أن يتنفسّا هواء غير هواء القصور. الذي كان يسبّب لها "البليميا". وغير هواء المدرسة الداخلية الذي كان يسبّب لها الكآبة. هواءً نقياً. يحمل أشذاء "البوب كورن " و"البوتاتو جبز ". كان يزعجها أن يذهبا مع أبيهما إلى الصيد. قالت عنهما، مرة، لصديقة "ذهبا يقتلان الحيوانات " ومع ذلك تقبلت الوضع. كانت تعرف أن ويليام سيصبح ملكاً ذات يوم. والصيد تقليد ملكي عمره ألف سنه. لا ! لا! لا! هذا ليس السبب. أحبّها الناس لولائها. آه ! الولاء! خصلة حميدة. يجمع عليها الأصدقاء والأعداء. إلا أنّ الأعداء يرون أن الأميرة منحت الولاء من لا يستحقه. الضابط الذي " قبّل وحكى ". الذي هامت به. وأرادت أن تزور مسرح المعركة أيام عاصفة الصحراء لتراه هناك.

لقاء "فوق سطوح الزوابع"، كما يقول محمود درويش. إلا أن الطلب قوبل بالرفض رغم إصرارها. ومنحت ولاءها لتشكيلة عجيبة من البشر انقلب كل منهم عليها. الواحد بعد الواحد والواحدة بعد الواحدة. استقالات بالجملة إلا أن الولاء خصلة نبيلة. حتى عندما يستغلها المستغلون. وديانا أعطت ولاءها من لا يستحقه ومن يستحقه. قضت ليلة بعد ليلة تواسي مريضاً يموت بالإيدز لأنه كان صديقها. سافرت المرة بعد المرة تشهد دفن إنسان مغمور لأنه كان صديقها. وفي قداسّ فرساجي كانت في الصف الأول تبكي ولا تبالي. الولاء. الذي حرمت منه زوجها. وحماتها. ومنحته بقيّة الناس. بسخاء. وتلقته بسخاء أكبر. بعد موتها. حين خرج الناس إلى الشوارع. مئات الآلاف. يودعوّن وردة انجلترا. ينتظرون الساعات ليتمكنوا من كتابة رسالة شخصية لها في دفتر العزاء. رسالة شخصية جداً. جعلت حياتنا أجمل. جعلت وجودنا أغنى. لن ننساك أبداً. نحن نحبكما : دودي وديانا. دي آند دي ! وما الذي جعل

دي تحب دي؟. أسأل صديقاً عرف دودي منذ الصغر. يبتسم. ويقول " ولو! كلك نظر! ". " كلي نظر. قل لي على أية حال". "اليخوت. والطائرات الخاصة. والفنادق الفخمة والخواتم الماسية". قالت ديانا لصديقة أن ديكور طائرة هارودز يضحكها: البساط السميك والوجوه الفرعونية. ومع ذلك ركبت الطائرة التي تضحكها مرة بعد مرة. ركبتها وهي ذاهبة لتمشي بين الألغام في البوسنة. نزعة الحياة الطائرة ونزعة الموت الماشية. وقالت لصديقتها إنها تضيق بهدايا دودي الثمينة. ولكنها لم ترجع واحدة منها. أميرة الشعب التي تحب الرفاهية. تسافر أمام الناس في طائرة تجارية وتتسلل، بعيداً عن العيون، إلى الطائرات الخاصة. التي تضحك من ديكورها. أميرة الشعب الارستقراطية. التي ولدت في قصر. وتزوجت في قصر. وعاشت بعد طلاقها في قصر. ولكن لحظة يا أخي. ذلك الضابط "الفأر" لم يكن يملك القصور واليخوت. حقيقة الأمر أنه باع القصّة واستفاد. وماذا عن ذلك الذي سمّاها "سكودجي؟". لم يقل أحد إنه من أصحاب البلايين.

القضية، إذن، أعمق من ذلك. أو أبسط من ذلك. ديانا لم تكن فتاه فقيرة. قدرت الصحف ثروتها بـ ٤٠ مليون جنيه. عدا الخطأ والسهو. كان بوسعها أن تشتري خاتماً ثميناً. وأن تستأجر فيلا على الشاطئ اللازوردي. يتبسم الصديق. وهو بدوره مبتلى بالواقعية. ويقول " يبدو أنك لا تعرف نقطة ضعف الارستقراطيين الأغنياء ". "من أين أعرفها وأنا لا أراهم إلا عن بعد؟ علاقة أفلاطونيه جداً". "حسناً. نقطة ضعفهم، يا صديقي المثالي، هي حُبّهم للأشياء الغالية. التي تأتيهم مجاناً" ." أنت أعرف ". لا يزال في نفسي شيء من نظرية " الدولتشى فيتا " المجانية. ألا يوجد في دودي ما يُحب غير هارودز ؟ الفتى الهوليودي اللاعب. الذي صاحب بروك شيلدز. وأخواتها. ملك السرعة. الذي تعلم قيادة السيارات في الرابعة عشرة. وتلقى " فيراري" هدية في السادسة عشرة. وسقطت به طائرة هيلوكبتر. المنتج. الذي درس بعض الوقت في ساند هيرست. لا ! لا نستطيع أن نعزو الحب إلى الخواتم. ولا إلى رغبة مالك هارودز في اقتناء ما هو أثمن

من هارودز. لا ندري، لا نحن ولا أنتم، لماذا أحبّت ديانا دودي. ولماذا أحبها. ولا ديانا كانت تدري. ولا دودي كان يدري. ولا ندري ماذا كانا ينويان أن يفعلا بحبهما. غير الفرار به من "الباباراتزي". أصدقاء دودى يقولون إنهما قررا الزواج. وصديقات ديانا يقلن إنه لم يكن هناك أي قرار. وعمر القصة قصير. قصير جداً. في عمر الفراشة. حب بدأ في الصيف. وازدهر في الصيف. وقتل في الصيف. غمامة صيف. حلم ذات ليلة صيف. لا نعرف ماذا كانا ينويان أن يفعلا. ولا نعرف لماذا ركضا ركضتهما المجنونة تلك في آخر أيامهما على الأرض. من المطار النائي. إلى الفيلا التي كان يملكها دوق وندسور. الذي كان، ذات يوم، أمير ويلز. وأصبح الملك ادوارد الثامن. وأحبَّ مطلقة أمريكية. لم يكن بوسعه أن يتزوجها. وهو رأس الكنيسة الانجيليكيه. وحامي العقيدة التي لا تُحبِّذ الطلاق. وتنازل عن العرش. من أجل المرأة التي أحبها. وأصبح صاحب السمو الملكي دوق وندسور. وأصبحت زوجته دوقة وندسور. من غير اللقب

الملكي. وقضت بقية حياتها وفي نفسها شيء من اللقب. علاقة غريبة. يتنازل الزوج عن العرش. وتغضب الزوجة لأنها لم تُعطَ اللقب. ذهب العشيقان من المطار إلى الفيلا. التي اشتراها الفايد. وأعاد ترميمها وتأثيثها . وشكرته المؤسسة الفرنسية ولم تشكره المؤسسة البريطانية. قضى العشيقان بعض الوقت في الفيلا. العابقه بروائح التاريخ. والعروش الملكية الضائعة. والألقاب الملكية المسحوبة. ومن الفيلا انطلقا إلى الريتز. بلاط الفايد في باريس. ومن البلاط انطلقا إلى شقة الفايد في الشانزليزيه. استراحة قصيرة تمهيداً للانطلاق إلى مطعم رومانسي صغير. والمصورون، كالجراد، في كل مكان من هذه الأمكنة. في المطار. وفي الفيلا. وفي الريتز وفي الشقة. وأمام المطعم الرومانسي. يلغي العشيقان زيارة المطعم الرومانسي. ويعودان، مرة أخرى، إلى الريتز. ركضة الموت المجنونة. "بيب!" "بيب!" "بيب!" وفي الريتز كتيبة من الحراس الشخصيين. لا تستطيع طرد المصورين من الأبواب ولكنها تستطيع منعهم من

اقتحام البلاط. إلى الجناح الفاخر. ومن الجناح إلى مطعم رومانسي صغير داخل الريتز. هل تمزح ؟ لا أمزح. ما هذا الإصرار العجائبي على المطاعم الرومانسية ؟! عادة العشاق أن يحتجبا عن الأنظار. كل الأنظار. لا أنظار المصورين فحسب. بل أنظار الجرسونات والزبائن. وكل البشر. عادة العاشقين أن يختليا بنفسيهما. وبحبهما. والحب كفيل بتحويل أي غرفة إلى مكان رومانسي حالم. تتأرجح في الجدران ظلال الشموع. بلا شموع. وتعبق في الأجواء روائح الجاردينيا. بلا جاردينيا. وتتردد في الهواء أعذب الأنغام. بلا أوركسترا. "خذ بيدي. أنا غريب في الفردوس". "طر بي إلى القمر. ودعني ألعب بين النجوم". " ها أنذا أعبرك يا نهر القمر بابتسامة". هذا شأن العشق التقليدي. الموروث من قيس وليلى. وروميو وجولييت. أما العشق الارستقراطي فقصة أخرى. على ما يبدو. لا تستغني عن المطاعم الرومانسية. والطائرات. والحرّاس. واليخوت. التجهيزات الأساسية. ركضة الموت المخبولة. ذهب

العاشقان إلى مطعم الريتز الرومانسـي. وبمجـرد دخوله اكتشـفا أن الزبـائن عرفوهمـا. يـا سـلام! اكتشـاف مذهل. اكتشاف خارق. ماذا كان العاشقان يتوقعـان؟ أن يعتقـد الزبـائن أن ديانـا هـي مـادلين أولـبرايت وأن دودي هو بطرس بطرس غـالي، وأنهمـا اختـارا مطعـم الريتز لتبادل العتاب وتنقيه الأجواء؟ اكتشـف الزبـائن، بألمعيـة منقطعـة النظـير، شـخصية العاشـقين. وفـرّ العاشـقان. إلى الجنـاح الفـاخر. حيـث تنـاولا، أخـيراً، العشاء الأخير. ومـاذا بعـد العشـاء؟ قـرر العاشـقان أن ينطلقـا إلى الشـقة مـرة أخـرى. وأن يتجنبـا المصوريـن بخطة جهنمية. اتضح أنها جهنمية بالفعل. سيارة مكان سيارة. سائق بدلاً من سائق. وجاءت السيارة ووقفـت في الخلف. وجاء السائق بعد أن شـرب زجاجـة نبيـذ. وربما أكثر. وهل هناك فرنسي يسكر بعد زجاجة نبيذ؟ الأرجح أن الفرنسي الذي لا يشرب زجاجـة نبيـذ مـع كـل وجبـة، وزجاجـة أخـرى، بعدهـا، يتصـرّف كالسكارى. "بيب!" "بيب!" "بيب!" بسرعة! بسرعة! بسرعة! إلى الشقة التي كان المصورون يرابطون أمامها.

ولم السرعة والمصورون في محطة الوصول؟ الحياة بسرعة. والقيادة بسرعة. والموت بسرعة. لماذا لم يقف العاشقان أمام المصورين دقيقة أو دقيقتين يرتاح بعدها الجميع؟ لابد من الهرب. لابد من الحفاظ على الصورة. صورة الطريدة. الضحيّة. الإاهة الصيد التي تحولت، كما قال أخوها، إلى صيد. موقف غريب. العالم، بأسره، يعرف قصة العاشقين. والعالم، بأسره، رأى صورهما. على ظهر اليخت. يفعلان ما يفعلان. لم، إذن، هذه المطاردة العبثية. في منتصف الليل؟ تصرف العاشقين لا يفسر. لابد للأسطورة من نهاية دامية. من الذي عرف إنساناً مات ميتة طبيعية وتحول إلى أسطورة؟ والجموع غاضبة على المصورين. وعلى الصحافة. ولابد من كبش فداء. أو أكثر. السائق المخمور. المصورون المنطلقون على الدراجات النارية. ملائكة الجحيم. الصحف في بريطانيا تجلد نفسها ندماً. وتذرف دموعاً حقيقية. ودموع تماسيح. ورؤساء التحرير في حالة استنفار. يعقدون اجتماعاً بعد اجتماع. للوصول إلى ميثاق شرف. يحمي

الخصوصيات. بعد خراب البصرة بعد أن ذهبت المرأة الوحيدة في العالم التي كان الصحفيون يعشقونها. ويعشقون صورها. ويعشقون خصوصياتها. الصحافة لم تقتل الأميرة. لنكن منطقيين. أعني لنحاول في هستيريا الحزن أن نكون منطقيين. كل شيء في المجتمع البريطاني انقلب رأساً على عقب. كل شيء تقريباً. ولماذا تبقى الصحافة على حالها؟ أليس هذا زمان السوق؟ ألم يخصص كل شيء. حتى حراسة المساجين. هذا المجتمع يسمح لدجال بريطاني بأن يملك ربع الصحف. ويسمح، بعد ذلك، لبليونير استرالي / أمريكي بأن يملك ثلث الصحف. وهل نتوقع من الدجال البريطاني أن يملأ الصحافة بقصص الكتاب المقدس. ومباهج القناعة. وحلاوة الاستقامة؟ أم نتوقع من البليونير الأجنبي أن يكرس صحفه للقضايا الوطنية. ومحبة التاج. والهتاف للملكة؟ العرض والطلب. الوصايا العشر الجديدة. لا تبع بجنيه ما يمكن أن تبيعه بعشرة. لا توفّر زوجة جارك. ولا زوجة أخيك. لا تعط الله شيئاً ولا قيصر- احتفظ بكل شيء. لا تدع مريضاً عقلياً في

المستشفى إذا كان بوسعك أن تطلقه في الشوارع. لا تحتفظ بقاتل في السجن إذا كان هناك أمل في أن يقتل مرّة أخرى بعد خروجه. لا تغتصب زوجتك إلا إذا كنت قادراً على دفع الغرامة. لا تنفق بنساً من ريع اللوتري على إيواء المشردين في المدن. لا تنتقد الشاذين جنسياً وإلا حوكمت بتهمة إهانة حقوق الإنسان. العرض والطلب. والطلب على الفضائح مستمر ولا بد أن يتواكب العرض مع الطلب. وإلا انفجر التضخم. حتى الكنيسة تطورت مع الزمن. قسيس يشكك في وجود جهنم. وآخر يشكك في وجود المسيح. وآخر في وجود الله. كنيسة منفتحة على متغيرات العصر. نساء قساوسة. وقساوسة يفضلن الرجال على النساء. والجميع على حق. إلا الصحافة المجرمة. التي تنشر الفضائح. وتطارد الأميرة الجميلة. حتى الموت. الصحافة، يا قوم، طفلة زمانها. كما كانت ديانا طفلة زمانها. ولم يمنع الزمان طفلته من ممارسة العلاقات الجنسية. بأنواعها. ولم يمنع طفلته الأخرى من متابعة العلاقات الجنسية. بأنواعها. لم يبق شيء على حاله

سوى الملكية. والآن يطلب الناس من الملكية أن تتغيّر. كما تغير المجتمع. يريدون ملكة على الدراجة. وولي عهد يذهب إلى المكتب في الجينز. وملكة أمّ تمتص الأيسكريم في الهايد بارك. يريدون تحديث الملكية. ودمقرطتها. جعلها قريبة من نبض الناس العاديين. الذين أحبتهم ديانا وأحبوها. وكانت تتسوّق معهم. وتأخذ أولادها إلى السينما مثلهم. ديانا التي قتلها المصوّرون. ولكن هل كانت ديانا، حقاً حقاً، تكره المصوّرين؟ لو كانت تكره المصورين، كيف أصبحت أكثر امرأة صُورت في التاريخ؟ قولوا! قولوا! وكل صور من الصور الفاتنة التي تملأ المجلات الفاخرة ذات الأوراق الصقيلة تحتاج إلى ساعات طويلة. وإلى مصور مشهور. وإلى ترتيبات معقّدة. وهل مرَّ على ديانا في حياتها القصيرة، أسبوع واحد، دون صور من هذا النوع؟. كانت ديانا تستخدم الصحافة بفعالية. وتستخدم المصورين، بالذات، بفعالية لا تكاد تصدق. كانت تدرك أن الممنوع مرغوب. جوّع كلبك يتبعك. ومصوّرك. الشهرة كلبة إذا جريت وراءها هربت منك

وإذا جريت منها ركضت وراءك. وُلِدتْ ديانا خبيرة إعلامية. بالفطرة. وزادتها التجارب خبرة. حتى أصبحت ملكة الإعلام. الذي حوّلها إلى ملكة القلوب. وأميرة القلوب. صدقوا أنتم إذا أردتم أنها كانت تكره المصورين. أما أنا فلا أصدّق. أنا أعرف أن الصور كانت طعام ديانا الحقيقي. طعام الفراشة كل صباح. الصور هي التي أنقذتها من كره الذات. وهي التي قدمتها إلى الملايين. على طبق من حب. أسطورة صنعتها ملايين الصور. وآلاف المصوّرين. صدقوا أنتم إذا شئتم. أنتم لم تكونوا جيرانها. كنت أنا جارها. كنت أرى، بعينيّ، كيف كانت تجوّعهم. وكيف كانوا، جائعين، يتبعونها. في شارعنا بوابتان. وعلى كل بوابة يرابط عدد من المصورين. خمسة أو ستة. يهجمون على كل سيارة تقترب. ثم يكتشفون أنها ليست الأميرة فيرجعون إلى أماكنهم. الزمان: صيف ١٩٩٢. المكان منزل السفير المصري الدكتور محمد شاكر. أقول للأميرة " أصبت عندما قدمت إلى لندن بإحباط. كنت أعتقد أن المصورّين الذين يرابطون على

البوابتين كانوا ينتظروني. ظننت أن شهرتي وصلت إلى لندن. ثم تبين أنهم ينتظرون غيري من سكان الشارع". الابتسامة الشهيرة. "يا صاحبة السمو! لديّ اقتراح. لماذا لا تقفين دقيقة واحدة كل صباح عند مدخل القصر فتريحين المصوّرين. وتريحين الساكنين. وترتاحين؟" تفكر لحظة. وتقول : " الأمور ليست بهذه السهولة. الأمور لا تمشي على هذا النحو". صدقت الأميرة. لو فعلت ما اقترحته لضعف الاهتمام. وخفّ. حتى يتلاشى مع الزمن. الفاكهة الممنوحة فاكهة مملولة. أما الفاكهة المسروقة فلذيذة الطعم. وملكة الإعلام تعرف هذه الحقيقة. تعرف أنه لابدّ من قصة جديدة كل يوم. صورة اختلست اختلاساً. مطاردة في الشارع. الطريدة الجميلة. فكروا، يا قوم، بهدوء. هل يمكن أن تلبس أجمل امرأة في العالم ثياباً قصيرة تكشف ساقيها وفخديها. وتنطلق من مكان محدد معلوم. إلى مكان محدد معلوم، في وقت محدد معلوم، وتدهش إذا وجدت المصورين في انتظارها؟ صدقوا، إذا شئتم، أنها كانت تكره المصوّرين. ولكن

اسألوا أنفسكم هذا السؤال. لماذا كانت أشهر امرأة في العالم، أُم الملك القادم. تصرّ على أن تمشي بلا حراسة هذا الإصرار العنيد؟ وأين؟ في لندن التي يخاف كل من يلبس ساعة "رولكس" من المشي فيها بلا حراسة. لماذا هذه المطاردة (المفتعلة) كل يوم؟ والمعركة (المصطنعة) كل يوم؟ لأنها لم تكن تريد أن يمر يوم واحد بلا قصة جديدة عنها. ونجحت. كما تعرفون جميعاً. دعوني أخبركم سرّاً. كانت إذا أرادت أن تتجنب المصورين تتجنبهم. ذهبت إلى مطاعم لا تعد ولا تحصى، مع أصدقاء لا يعدون ولا يحصون، ولم يكن هناك مصور واحد. قالت صديقة إنها قضت مع ديانا قرابة أسبوع في جزيرة يونانية ولم يكن هناك مصورون. في آخر يوم اكتشف سائح وجودها وصوّرها. سائح! ظلّت، حتى آخر لحظة من حياتها، إلاهة الصيد. تصطاد الكاميرات. وانتباه العالم. وأنتم تصدقون أنها طريدة لا حول لها ولا قوة. كان هذا كله في الماضي السحيق. أما الآن فالمشهد الحزين هو كل ما يقابل المصورين. الكفن الملفوف بالعلم الملكي. يمر بالشوارع. بالملايين

الحزينة. وفي الكاتدرائية قدّاس عجيب. مناسبة لا هي رسمية ولا هي شخصية. ترتيب فريد يليق بامرأة فريدة كما قال ناطق باسم القصر. أشياء مألوفة. وأشياء جديدة. الصلوات المألوفة. التراتيم الكنسية المألوفة. أسقف كانتبري. وهناك أشياء غريبة. ألتون جون يغني "وداعاً، وردة انجلترا" في الكاتدرائية. ورئيس الوزراء، توني بلير، يلقي من الكتاب المقدس فقرة عن الحب. وأخوها الإيرل سبنسر يهاجم العائلة المالكة أمام العائلة المالكة. شيء من العنجهية. وعائلة سبنسر لا تخلو من عنجهية. ظهرت على المسرح قبل ثلاثة قرون ونصف. بدأت عائلة تجارية. وتحولت إلى عائلة ارستقراطية عن طريق المصاهرة. الزواج إلى أعلى. حتى أصبح جداً من جدود الأميرة " إيرل" - وهو ضرب من اللوردات- وانتقل اللقب حتى وصل إلى والد ديانا. وهذا ما جعلها ليدي. تفخر بأصولها الأرستقراطية. كانت في الملّمات تقول لنفسها " تذكري أنك من آل سبنسر! تذكري أنك من آل سبنسر! ". لم تقل لنفسها، قط، تذكري أنك من غمار الشعب. أو من عامة الناس.

ووصل اللقب إلى أخيها. الذي يقف الآن أمام العائلة المالكة يهاجم العائلة المالكة. آل سبنسر لا يخلون من غرور. سُئِل والدها، أيام خطوبتها، إذا كان يعتقد أن آل سبنسر جديرون بمصاهرة آل وندسور؟ وقال الوالد، الذي لم يتهمه أحد بالعبقرية، إن السؤال هو : هل آل وندسور جديرون بمصاهرة آل سبنسر؟ تعليق سخيف. العين لا تعلو على الحاجب. الأرستقراطية شيء. والملكية شيء. الملكية شمس. والأرستقراطية كوكب. الملكية تشع. والأرستقراطية تعكس. يمكن أن توجد ملكية بلا أرستقراطية. ولكن يستحيل أن توجد أرستقراطية بلا ملكية. وهذا الإيرل منفعل. بينه وبين الصحافة أحن ومحن. لا علاقة لها بأخته. كان هو، ذات يوم، صحفياً. " وصاحب البيت". " وظلم ذوي القربى". يقف الآن ويهاجم العائلة المالكة. ويلمح، تلميحاً أوضح من التصريح، إلى اللقب الذي نزعته العائلة المالكة من ديانا بعد طلاقها: صاحبة السمو الملكي. الملكة متحجرّة القلب! إلا أن الملكة سمحت لديانا بأن تحتفظ باللقب الأهم: أميرة ويلز. هناك أكثر

من صاحبة سمّو ملكي. وهناك أميرة ويلز واحدة. وديانا كانت تعرف هذه الحقيقة. التي جهلها الصحفيون. الذين يظنون أنهم يعرفون كل شيء. وهم، أحياناً، لا يعرفون كوعهم من بوعهم. والشقيق المنفعل لا يكتفي بمهاجمة العائلة المالكة. بل يتعهّد بأنه سوف يربي ولديْ ديانا على طريقته. على الطريقة التي أرادتها ديانا. تعهّد غريب بعض الشيء. متهور بعض الشيء. والإيرل يعيش في جنوب افريقيا. ولديه مشاكل عائلية تنوء بالعصبة أولي القوة. إلا أنه منفعل. والجمهور منفعل. يصفّق في الكاتدرائية. لأول مرة تشهد الكاتدرائية تصفيقاً. والحشود في الخارج تصفق. تضامناً مع الشقيق المنفعل. الذي أعلن أن الصحافة قتلت الأميرة. وأن العائلة المالكة غير جديرة بتربية ولدي الأميرة. يجوز للحزانى ما لا يجوز لغيرهم. وللإيرالات الحزانى بصفة خاصة. والأسطورة تنمو. وتنمو. وتنمو. وسوف يرى الناس ديانا بعد موتها. في كل مكان. كما رأوا اليفيس برسلي بعد موته في كل مكان. قال بعض الذين كانوا يوقعّون دفاتر العزاء في

قصر سانت جيمس أنهم رأوا صورتها منعكسة على لوحة تمثّل تشارلز. لا أقصد تشارلز زوجها السابق. الذي كرهته وعشقت لقبه. أقصد الملك تشارلز. الأول. أقسم الكثيرون أنهم رأوا الوجه في اللوحة. حتى "الاندبندنت" الرصينة أشارت إلى القصة. وستنمو الأسطورة. حتى تفقد كل صلة بالحقيقة. وتصبح خرافة. والخرافة أسطورة ليس لها أي أصل من الحقيقة. وسوف تصبح أجمل مما كانت عليه. وأبهى. وأرق. وأرحم. وها هي ذي أبيات جميلة أمامي من الصديق الشاعر حمد العسعوس تضع حجراً براقاً في صرح الأسطورة :

كانت الخبز للجائعين
والبيت للضائعين
والأمن للخائفين
وللعاشقين القمر..
وكانت - لنا- منجماً من بهاءْ
وكانت - لأرواحنا- شاطئاً،

وكانت .. دواءْ

وكانت .. فضاءْ

ولكنها أمطرت ذهباً

فابتساماتها لؤلؤُ الفقراءْ

وهدايا لكل البشرْ.

سوف تُخترع عنها قصص عاطفية لم توجد. ومغامرات لم تحدث. ويظهر لها أصدقاء جدد. ويختفي عدد من الأعداء القدامى. من الحكمة أن أكمل قصتي معها. أقصد قصة لقاءاتي بها. قبل أن تمسي الأسطورة بجنون. فأدّعي أنني رأيتها مائة مرة. وتبادلت معها مائة حوار. وكانت تشكو إليَّ همومها. وكنت أنشدها الشعر. اللقاء الرابع. الزمان : خريف ١٩٩٢. المكان : قصر باكنجهام. المناسبة: الحفل السنوي الذي تقيمه الملكة للسلك الدبلوماسي. كنت هناك. أرتدي وسامين. وعلى البشت الأسود تتألق رصيعتان برّاقتان. لدّي عدد من الأوسمة العالية. حصلت عليها بحكم المنصب الوزاري. لا بسبب أي جهود علمية أو عملية.

ولم أكن أعرف ماذا أفعل بها. غير النظر إليها بين الحين والحين. حتى أصبحت سفيراً في بلاط السانت جيمس. وهذه تسمية تجاوزها الزمن. كان ملوك بريطانيا يسكنون قصر السانت جيمس حتى منتصف القرن التاسع عشر. حين تحولت الملكة فيكتوريا إلى قصر باكنجهام. الذي أصبح منذ ذلك الحين البلاط الرسمي. إلا أن الاسم القديم بقي. والبريطانيون لا يحبون تغيير الأسماء. ولهذا لم يوفّق زعيم حزب المحافظين. عندما اقترح تغيير اسم مطار هيثرو إلى مطار ديانا. سقط الاقتراح على وجهه ولم يقم. كنت، إذن، أرتدي وسامين. وكان بوسعي أن أرتدي أكثر. بعض السفراء يستعرضون كل أوسمتهم في مناسبات كهذه. في الحفلات البريطانية الرسمية يشعر من يأتي بلا وسام أنه عريان. أضيع من الأيتام. أكتفيت بوسامين. من باب التواضع.وحتى لا أبدو مثل عيدي أمين في الصورة المشهورة. ذات المائة وسام. ولأنه من الصعب ارتداء أكثر من وسامين مع الملابس العربية. وأقبلت صاحبة الجلالة. تتبادل عبارات المجاملة مع السفراء.

المواضيع التقليدية. الآمنة. وكم سنة مرّت عليك في لندن؟ وكيف تجد الجو في لندن؟ وأين يدرس أبناؤك؟ وأقبل دوق أدنبرة. الذي يعلّق أحياناً تعليقات تفتقر إلى الدبلوماسية. وليس من الدبلوماسية أن أشير إليها. والصحف البريطانية تشير إليها برتابة قاتلة. وأقبل أمير ويلز. تبادلنا التعليقات الباسمة. ثم جاءت ديانا. تشع أكثر من العادة. بقلائد من الماس. وقفتْ أمامي صامتة. فجأة. ابتسمت وقالت " هو أنت مرة أخرى؟"ـ. قلت " هو أنا مرة أخرى" قالت : " لم أعرفك من النظرة الأولى". قلت: "جئت، الليلة، متنكراً". قالت : "متنكراً؟ " قلت : " نعم. على هيئة سفير عربي. يرتدي وسامين يتلقان". الضحكة الشهيرة. والسفراء من كل جانب ينظرون مستغربين. حتى على الضحك! وتنتقل إلى زوجتي: " هل لا زال يرمي قشور الطماطم في الأدراج؟" ذاكرة قوية. حدث ذلك الحوار قبل شهور. ردّت زوجتي: " لو سمحت له بدخول المطبخ لفعل ذلك". ابتسامة أخرى. وذهبت. فيما بعد. يسألني زميل : " عن ماذا كنت تتهامس مع الأميرة؟ ".

" كنا نتكلم عن قشور الطمـاطم". لم يصدقـني بطبيعـة الحـال. ظـن أننـا كنـا نبحـث موضوعـاً خطـيراً. مـن مواضيـع السـاعة. أربعـة لقـاءات. بالتمـام والكمـال. رويت قصتها هنا. بالقدر الذي حملتـه الذاكـرة. لم أزد شيئاً. وربما أنقصـت أشـياء. لم تكـن ذات أهميـة. لـو كـانت في أهميـة قشـور الطمـاطم لمـا تبخـرت مـن الذاكرة. ولكنها كانت جارتك. ألم تكن هناك لقاءات أخرى ؟ أوه! كانت هناك لقاءات خاطفـة. مـن بعيـد. هي في سيارتها وأنـا في سيارتي. مـرة كـل بضـع شـهور. ابتسامة. و"بيب!"ـ "بيـب!" "بيـب!"- "لا يمكـن أن نعتـبر هذه لقاءات. وماذا عن الرسـائل؟ ألم تكـن هنـاك رسـائل؟ أوه! كانت هناك عدة رسائل. روتينية جداً. كنـت أهديها كتاباً. وكانت ترد برسـالة شـكر رقيقـة. ذكرتـني! الرسـائل جـزء مـن الأسـطورة. كـان لديهـا جلـد كبير علـى كتابــة الرسائل. كانت بعد موسم الكرسمس تعتكف أياماً لترد على كل من أرسل إليها هدية. أو بطاقة. وبعد كل زيارة رسميـة. وبعد كل جولة. ولكن حتى أقوى فتـاة لا تسـتطيع أن تـرد على ٣٠,٠٠٠ بطاقة عزاء. و٣٠٠,٠٠٠ رسالة.

أنشر على ظهر هذا الكتاب رسالة منها. ليطلع عليها هواة التواقيع وخبراء الخطوط. وأنا من هواة التواقيع. وأزعم أنني أعرف شيئاً عن الخطوط. لا نتيجة الدراسة. ولكن بفضل الخبرة. ثلث قرن في الوظيفة. أقرأ كل يوم عشرات الرسائل. شاء المرء أو لم يشأ تتجمع لديه حصيلة لا بأس بها من القدرة على تحليل الخطوط. أعني تحليل الشخصية المختفية وراء الخط. وتحليل التواقيع. إلا أن خط ديانا واضح. لا يدل على ما يعتمل من أعاصير في نفس الكاتبة. وتوقيعها. بدوره، واضح. إلا أن توقيعها يكشف، للعين الخبيرة، الكثير. هناك الخط تحت التوقيع. لا تكاد تجد الخطوط إلا تحت التواقيع الملكية. وتواقيع أولئك الذين يحملون تطلّعات ملكية. واقعية أو غير واقعية. وهناك النقطة وراء الاسم. ومعنى هذا أنه يكفي أن أقول ديانا. لا يوجد ما يدعو إلى إضافة شيء آخر. الجميع يعرفون من هي ديانا وهي تعرف أن الجميع يعرفونها. توقيع ملكي بلا ريب ولا شك. والأسطورة تنمو. وتنمو. وتنمو. مع مزيد من الورود. ومجلات تخصّص من أولها

إلى آخرها للأميرة. أعداد تذكارية. مليئة بالصور. التي تستعرض الحياة المثيرة القصيرة. الطفلة المشاغبة. صورة ديانا وهي تقفز إلى الماء. صورتها وهي واقفة أمام السور وبين ساقيها لوحة. مكتوب عليها " ملكية خاصة". اللوحة على السور ولكنها تبدو في الصورة ملتصقة بساقيها. الأميرة العاشقة. صورتها وهي تقبل أميرها، يوم الزفاف، في شرفة قصر باكنجهام. صورتها وهي تخاصره في رقصة حالمة في أستراليا. الأم السعيدة. صورتها مع ويليام عقب ولادته. صورتها مع الطفلين اللذين يلعبان حولها. الزوجة الشقية. صورتها وهي وحيدة أمام "التاج محل". صورتها وهي تتفادى، ببراعة، قبلة زوجها التي تصيب الهواء. ملاك الرحمة. صورتها تحتضن طفلاً صغيراً أسود. صورتها مع الأم تيريزا. عاشقة الحياة. صورتها في رقصة صاخبة مع ترافولتا في البيت الأبيض. صورتها تحتضن موجة على شاطئ إستوائي. ملكة الإغراء. الفستان المفتوح. وهنري كسينجر يحملق في فتحة الصدر. الشورت الذي يكشف، باسم الرياضة، ما لا يجوز كشفه.

سفيرة بريطانيا الأولى. صورتها مع البابا. صورتها مع مانديلا. وفي نهاية المطاف. المرأة التي وجدت نفسها. التي تغلّبت على كل عقدها. التي وجدت السعادة. صورتها على اليخت. وصورتها في الزورق الصغير. ملايين الصور. الصور التي صنعت الأسطورة. وسوف تستمر في صنع الأسطورة. والناس يطالبون بتخليد ذكراها بشيء ملموس. غير الصندوق الخيري التذكاري. إلا أن توني بلير ليس في عجلة من أمره. الذبذبات الآن متناقضة. وغير واضحة. تمثال في ترافلجار. مستشفى أطفال. طوابع. شكل لجنة برئاسة وزير الخزانة. وطلب منها أن تدرس البدائل. وأوصاها بأن تتريث. ولم يكن هناك مُبرر لهذه التوصية. لا توجد لجنة مستعجلة على أية حال. واللجان التي يرأسها وزير خزانة غير مشهورة بالسرعة الفائقة. "بيب!" "بيب!" "بيب!" الشوارع التي تغص بالملايين. والموكب ينتقل تحت مطر من الزهور. والحزن منضبط. صامت. هادئ. يختلف تماماً عن الحزن الصاخب. الذي لفّ القاهرة. يوم مات جمال عبد الناصر. حيث اندفع الناس

بالملايين. وكادوا يختطفون النعش. ولم يتمكن أحد من رؤساء الدول أن يمشي في الجنازة. وألغيت كل الترتيبات. حزن بريطاني. يقف كل إنسان في مكانه. وينتظر دوره. دموع بلا زفير أو شهيق. وتختفي السيارة عن الأنظار متجهة إلى المثوى الأخير. في ربوع القصر الذي ولدت فيه. على جزيرة صغيرة وسط البحيرة. ذهبت المرأة التي لم يستطع أحد أن يفسّر لماذا تحولت إلى أسطورة. تريد رأيي الخاص؟ رأيي الخاص جداً؟ السحر! كل رجل يتحول إلى أسطورة كان رجلاً ساحراً. وكل امرأة تتحول إلى أسطورة كانت امرأة ساحرة. والسحر فنون. ولكل ساحر تخصص. وماذا عن جارتك؟ جارتي كانت تسحر كل من يقابلها فتدخل قلبه. وتجعله، وهنا خطورة السحر، يعتقد أنه دخل قلبها. وجارتي كانت تسحر، من بعيد، كل من لم يقابلها فيتوهم أنه قابلها. وأنه دخل قلبها. وأنها دخلت قلبه. الصديق المشاغب خالد الدويسان يقول لي فيما بعد. "لم نرك في الكاتدرائية" أقول " كنت في إجازتي السنوية". ردّ دبلوماسي. لا يكذب بصراحة.

ولا يجيب على السؤال بصراحة. إلا أن خالد دبلوماسي عتيق لا تنطلي عليه الأجوبة الدبلوماسية. يقول "ولكنك كنت في لندن". "كنت في إجازتي السنوية". " لماذا لم تقطع الإجازة وتحضر مراسم الكاتدرائية؟ ". "خشيت أن أبكي أمام الناس" يحاول خالد أن يعرف إذا كنت أمزح. ولا يستطيع لسبب بسيط. وهو أنني لا أعرف هل كنت أمزح. كثيراً ما أبكي، بدموع حقيقية، أمام مشهد سينمائي حزين. وهذا موقف حزن حقيقي. من يعرف كيف سيكون رد فعلي؟. إلا أن كل شيء نُقل على التلفزيون. هل بكيتَ أمام التلفزيون؟ امتنع عن التعليق. حتى لا تهدر النساء العربيات دمي. بتهمة الخيانة العاطفية القومية.

وداعاً، وردة إنجلترا !

وداعاً، أيتها الفراشة الحمقاء!

وداعاً، أيتها الجارة الساحرة!

وبعد. يا فهد !

ستتمكن ذات يوم، بإذن اللّه، من قراءة هذا الحديث. وقد يعجبك. وقد لا يعجبك. ولكني أريد أن تعدني. سواء كنت أنا هنا في ذلك الحين أو لم أكن. عدني أن تذهب إلى تلك المرأة التي نحبها كثيراً أنت وأنا. وتقول لها : " جدّتي! لماذا لم توافقي على دعوة ديانا إلى الشاي؟ " وأريد منك وعداً ثانياً يا فهد. عندما تقول لك، كما أعرف أنها ستقول،" لم أدعها خوفاً على جدّك. كنت أريد حمايته من موت مُحقق في شوارع باريس ". أريد أن تبتسم. ولا تصدق. جدتك تشاغب أحياناً. كما تشاغب أنت طيلة الوقت. لن نعرف، أبداً، لماذا لم تَدْع جدتك ديانا لشرب الشاي في منزلنا. ولن نعرف، أبداً، لماذا تحولت ديانا إلى أسطورة.



THE LEGEND

من مؤلفات الدكتور
غازي عبد الرحمن القصيبي
الصادرة عن
المؤسسة العربية للدراسات والنشر:

ورود على ضفائر سناء	شعر
عقد من الحجارة	شعر
سحيم	شعر
الإلمام بغزل الفقهاء الأعلام	شعر
قراءة في وجه لندن	شعر
بيت	شعر
قصيدة «الأشج»	شعر
للشهداء	شعر
الخليج يتحدث شعراً ونثراً	شعر ونثر
التنمية .. الأسئلة الكبرى	مختارات
الأسطورة .. ديانا	مقالات
الغزو الثقافي ومقالات أخرى	مقالات
صوت من الخلّيج	مقالات
أبو شلاّخ البرمائي	رواية
سعادة السفير	رواية
سلمى	رواية
مع ناجي ومعها	دراسة أدبية
حياة في الإدارة	سيرة
أمريكا والسعودية	سياسة


ISBN 9953-36-941-0
9 789953 369419

